فن الحياة

تأليف

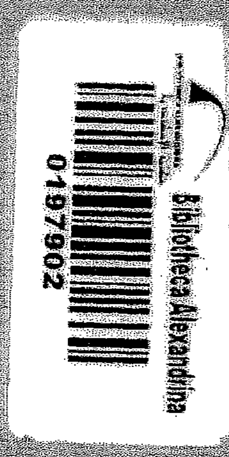
سلامة موسى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

٣٣ شارع قصر النيل - بمصر

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه





فنّ الحياة

تأليف

سلامة موسى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

٣٣ شارع قصر النيل - بمصر

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه



مؤلفات أخرى للاستاذ سلامه موسى

البلاغة العصرية واللغة العربية

عقلى وعقلك

كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين

التثقيف الذاتى أو كيف نربى أنفسنا

الشخصية الناجعة

نظرية التطور وأصل الانسـان

مصر أصل الحضـــارة

تربية سلامة موسى

فهرست

صحيفة

صحيفة

المقدمة

كتبت هذا الكتاب فى ضوء اختباراتى للوسط المصرى وقد عالجت موضوعه من جملة وجهات فلسفية وسيكلوجية واجتماعية .

ونحن نعيش فى حضارتنا القائمة عيشاً مكبفاً بعادات المجتمع موجها إلى أهدافه مدربا على أساليبه . ولذلك ننساق انسياقا كأننا ذاهلون لانقف ونسائل عن القيم البشرية فى هذه العادات والأهداف والأساليب .

وليس شك أن غاية الحياة أن نحيي الحياة على مستواها السامى . ومعنى هذا الكلام هو أن نعيش بما لدينا من كفاءات بشرية تسمو على كفاءات الحيوان. أى يجب أن نعيش بالوجدان والتعقل وليس بالغريزة والعاطفة . وفن الحياة هو فى النهاية الارتفاع بكفاءاتنا الموروثة إلى ما كسبناه واقتنيناه من التراث الاجتماعى الثقافى .

ولكن هذا التراث الاجتماعى الثقافى يجب ألا يسوقنا وألا

يضلنا عن القيم الأصلية فى الحياة . وقد التفت فى الفصول التالية إلى ثلاثة أو أربعة أشياء لكل منها مكانة مركزية فى البحث عن فن الحياة .

التفت أولا إلى أن النجاح يجب أن يكون كلياً فى الحياة وليس فى الحرفة أو الزواج أو الكسب . فان كلمة النجاح فى مجتمعنا الاقتنائى كثيراً مايشتبه معناها بمعنى الأثراء . ولكن الناجح الصادق هو الذى يجعل نجاحه شاملا متوافياً لنشاط حياته كلها .

والتفت ثانياً إلى أن المجتمع الذى نعيش فيه كثيراً ما يضلل بنا ويبعدنا عن القيم البشرية . بل هو أحيانا يسخرنا فى أهدافه التى قد تناقض ماننشد من رقى أو سعادة . فهو منا بمثابة المدينة التى تكتنفنا بمساكنها وأضوائها الصناعية وضوضائها واهتماماتها الزائفة فنعيش فيها ونكاد ننسى أنه على مسافة ثلاثة أميال منا ينهض الريف فى طبيعته النضرة وأشجاره ومياهه وحيوانه . وقد نألف عادات هذا المجتمع فلا نجد النشاط إلى تغييرها ولا ننهض إلى الخروج إلى هذا الريف القريب . وكذلك الشأن فى تلك القيم الاجتماعية وأثرها فى نفوسنا حين نعيش فى أسر هذه القيم الزائفة مدى حياتنا .

وقد احتجت إلى أن أوضح أن السعادة كما ينشدها الجمهور إنما هى فى أغلب الأحيان ذهول وتبلد أو استرسال فى العواطف الحيوانية التى تحركها غرائزنا السفلى . وإن هذه السعادة ليست جديرة بانسان راق يرتفع إلى أن يجعل من حياته فناً . وعندى أن

الوجدان أى التعقل هو صميم السعادة . وأنه مهما فدحت الكوارث فان الوجدان يواجهها فى شجاعة وتحدٍ وفهم.

كذلك التفت إلى قيمه الثقافة من حيث أنها تكفل لنا توسعاً ذهنياً ينتهى إلى أن يكون توسعاً حيويا. لأنها،أى الثقافة،تزيد اهتماماتنا وتعودنا عادات إيجابية عندما نصل إلى الشيخوخة . وعلى القارىء أن يقرأ كتابي الآخر « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » . فانى هنا أكدت النبرة فى هذا المعنى أى القيمة من الدراسة والثقافة للشيخوخة السعيدة .

وكان يمكن أن أسمى هذا الكتاب « الحياة السعيدة » لولا أن كلمة السعادة قد ابتذلت فى معانٍ سفلية . كما أن هناك التباسات واشتباهات كثيرة عن حقيقة معناها . وقد احتجت إلى التنبيه عن ذلك . ولكن فى عبارة « فن الحياة » ما يرفع القارىء عن مبتذلات كلمة « السعادة » .

وأرجو أن يكون فى الفصول التالية توجيه لقرائها من الشباب والكهول ؟ .

سلامه موسى

فن الحياة

يعيش الحيوان على المستوى البيولوجى : يأكل ويشرب ويتناسل . ولكننا نحن البشر نعيش على المستوى المدنى الفنى الثقافى . وقد لا يصدق هذا على جميع البشر ، أو بتعبير أصح ، قد لا يصدق هذا القول من حيث الدرجة التى يبلغها البشر فى المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى فى الأمة المتمدنة . فاننا مازلنا نجد الطبقات الفقيرة فى مصر والهند تعيش على المستوى البيولوجى . بل الحال كذلك أيضاً فى الطبقات الفقيرة فى أمم أوربا الجنوبية حيث يقنع أفرادها بالحياة السلبية أى باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعاً لا يلتذون الحياة وإنما يكابدونها

ولكن جميع الأمم المتمدنة تحوى طبقات من الشعب تعيش الحياة الايجابية إذ هى قد إطمأنت من ناحيتى الجوع والمرض بل هى قد استبعدت الموت إلى مابعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهى تجد فى كفاية العيش ما يتيح لها الاستمتاع الروحى والمادى. وهذه الطبقات تمثل فى عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الأفراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفنى الكمالى لأن الضروريات تتوافر إلى الحد الذى

لا يحسب لها حساب ولا تكون سبباً للهموم والاهتمامات .
وليس هذا العصر بعيداً . بل هو أقرب إلينا مما نتخيل .

والانسان فى كفاحه الاجتماعى ينشد الضروريات أولا حتى إذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات ضروريات الأجيال القادمة . فهى ترف أولا يقتصر على أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانياً تشمل طبقة كبيرة . وأخيراً ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدن المثقف .

أنظر إلى الطعام : تشد فيه الانسان البدائى الشبع . لايرجو غير الضرورة البيلوجية . وانظر إلى المسكن الذى كان يبنيه للاحتماء من الوحش أوالعدو أوالجو . وإنظر إلى اللباس الذى كان يتخذه للدفء . أجل لقد كان الطعام والمسكن واللباس من الضروريات . ولكن من منا نحن المتمدنين يقنع من هذه الثلاثة بالضروريات البيولوجية فى عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التى لا تزال فى أسفل الدرج من السلم الاجتماعى . وصحيح أن هذه الطبقات لاتزال تقنع بالضروريات البيولوجية من المسكن واللباس والطعام . ولكن فى كل أمة طبقات أخرى استمتعت بقسط كبير من المال والثقافة والحضارة . وهى لذلك تتوخى الفن فى كل ما تتناول من عمل . فالمسكن ليس مأوى فقط . إذ هو

متحف أيضاً يتزين بالأثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف الأنيقة . وسيداتنا وآنساتنا لا يطلبن من اللباس دفئاً قدر ما يطلبن منه زينة وجمالا . والمائدة التى تحمل ألوان الطعام تتفنن فى ترتيبها وإيجاد الأطباق الثمينة والآنية الغالية عليها . وهذا إلى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها نشاطاً ذهنياً فنياً

فهنا فنون فى البناء والأثاث واللباس والمائدة نرتاح إليها ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التى كان يقنع بها الانسان البدائى وما زال يضطر إلى أن يقنع بها أو بما يقاربها الفقير المغبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا إلى مستوى من الجمال تزداد به لذة واستمتاعا بل نزداد به فهماً ووجداناً

وبالفن نرفع المشى الى الرقص . ونرفع النثر الى الشعر . ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع أن نعيش الحياة الفنية فنهدف إلى الفن فى الحياة ، والبلاغة فى السلوك والتصرف . ويجب أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لأنه اذا كان من الحسن أن نتخذ الزى الفنى للباسنا فان من الأحسن أن نتخذ الزى الفنى لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الأولى لكل إنسان على هذا الكوكب أنه سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التي يصفها شكسبير بأنها « قصة يقصها أبله فتحفل بالضوضاء والغضب ثم لايكون لها مغزى ؟» أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لأن قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

قد يخطر بذهن القارىء عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البليغة إننا إنما نقصد إلى زخارف وبهارج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعنيان فى لبابهما حكمة وسداداً . لأن كلمات الحكمة هى أسمى أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هى الحكمة ؟

هى العمل أحياناً بالمعرفة .

وهى أحياناً تجاهل المعرفة .

وهى التمييز فى القيم والاوزان .

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه وجدانى يتعقل فى حين أن الحيوان غريزى يندفع . ونحن نهدف إلى قصد فى حياتنا فى حين هو يعيش جزافا . ونحن نقرر مصيرنا بأيدينا فى حين هو ينساق خاضعاً للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلى الذى يرتب النتائج على الأسباب ولكنه يطابق المنطق العملى الذى نحيا به فى مجتمعنا المتمدن

وحياتنا فى عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحياناً تلتغز . وقد كان لآبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها فى طريق الحياة

الساذجة التي كانوا يحيونها . ولكن هذه الأعلام لم تعد تكفى لارشادنا فى طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن فى حاجة الى تعاليم جديدة نتعلم بها كيف نعيش الحياة الفنية أى الحياة الحكيمة وكيف نقضى سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب ونحن ننمو وننضج الى الأيناع . فلا تكون حياتنا مكابدة بل إلتذاذاً روحياً ومادياً . ونحن فى مجتمعنا إنما نحصل من التعليم ، فى الأغلب ، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب الحياة الناجحة . لأننا ننسى أن الحياة أعم وأهم من الكسب . وإننا نكسب كى نعيش ولا نعيش كى نكسب كما هى الحال الآن

وإنما صارت الحال كذلك لأن شبح الفاقة يلوح على الدوام فى مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر كل شىء آخر . لأننا نعيش فى اقتصاديات القلة فى حين أن اقتصاديات الوفرة على الأبواب تنتظرنا بل تنادينا . ولا تحتاج إلا أن نومىء بأصبع الرضى فيغمرنا الخير الوفير الذى لا نعرف فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ أى عندما نومىء هذه الايماءة ونرضى بالتعاون بدلا من المباراة فى الانتاج ، نستطيع جميعنا أن نعيش العيشة الفنية ونحيي الحياة الحكيمة وأن نتوخى مأرباً فنياً فى كل ما نتناول من معارف أو معايش

وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة فى

ألوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون من تعاليم أو أنظمــــة . ولـكن أين هذا التفاؤل من حقائق الدنيا ؟ من الأمراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عينيه ويرى الدنيا ظلاماً ؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لحمه الطرى ووجهه الحلو فى تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الأعدام من طبيبه الذى ينبئه بمرض لا يعالج ؟

ولـكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لان الـكوارث نفسها من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذى لم تـكرثه كارثة تصل إلى مخ عظامه ، ذلك الذى لم يحس اللوعة يغص بألمها ويجمد من هولها ، ذلك الانسان لم يعش الحياة الفنيـــة ولم يعرف حكمتها . وأقل ما يقال عنه أنه لم يعش الحياة الـكاملة . ومع ذلك نحن نبالغ . فان كلا منـا يعرف أن أعظم المصائب التى كان قد توقعها لم تقع له . وإن بعض هذه المصائب كان مفيداً قد انتفع به . انظر إلى قول داروين : « لو لم أكـن متمرضاً إلى حد عظيم لما أتممـــت كل هذا القدر الـكبير من الاعمال » .

وكثيراً ما نعيش سادرين ذاهلين حتى إذا كرثتنا الـكارثة تنبهنا كأننا قد إستيقظنا من نوم فيتبلج لنا نور وتنـكشف لنـا حقائق ما كـنا لنراهـا لولا هذه الـكارثة . وأيام المـرض فى السرير كثيراً ما تـكون أيام التنبيه والتجديد .

ونحن فى حاجة دائمة إلى استعمال ذكائنا كى نميز بين لذة العاطفة ولذة الوجدان ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية . وبين الامتياز الذاتى فى النفس وبين الامتياز المادى فى العقار . أى بين ما نكونه وما نملكه .

والحياة الفنية هى الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن والجمال لا نزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح . ولكن من منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسى . وأشياء أخرى نعرفها بالاختبارات الذهنية وليست الاولى دون الثانية وأن تكن فى مرتبة أخرى . وإذا كنا ننشد الفن والجمال فى الاثاث والبناء والرسم فاننا يجب أيضاً ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن ننشد الجمال فى الحياة ، فى الشخصية الرشيقة ، والذهن اللبق ، والجسم الانيق كما فى الأخلاق السامية والاهداف الروحية والعلاقات الاجتماعية .

نحن غريزة وعقل

كى نعيش العيشة الفنية ونحيي حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف أن كلا منا مركب من غريزة وعقل. الغريزة هى قديمنا الموروث ، هى التقاليد البيولوجية ، هى ذاكرة النوع الجامدة . والعقل هو جديدنا الذى يتعلم وينمو ويميزنا بالفهم عن الحيوان

ذلك أن الحيوان يعيش بالغرائز أو أن ٩٩ فى المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاتى على مستوى منخفض ليس له وجدان موضوعى . ولكن الانسان بعقله ووجدانه يستطيع أن يجعل فهمه موضوعياً وأن يصل إلى حقائق الدنيا كما هى فى حقيقتها أو ما يقرب من ذلك . وعلومنا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا إنما هى ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز

الحيوان فى ذهول بغرائزه يحيي وكأنه فى حلم . والانسان بالمقارنة به فى تنبه ويقظة بعقله ووجدانه هذا الوجدان الذى يجعله يتصرف وهو يدرى أنه يتصرف ولكن الحيوان لا يدرى

وهذا الوجدان هو الذى يجعلنا على دراية بالموت والفقر والكوارث حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك . ولكن هذا الشقاء « إنسانى » ولا نرتضى النزول عنه كى نعيش بالغرائز ، نعيش فى ذهول كما يفعل الحيوان . وعندما نرى أنفسنا

أو أبناءنا إنما نعمد إلى هذا الوجدان ونستنبط التعقل ومحاولة التعرف إلى الأشياء كما هى فى حقيقتها وليس كما تصورها لنا غرائزنا .

وواضح أنه ليس هناك انسان يعيش بوجدانه فقط يتعقل كل شيء ويتفهم الدنيا تفهماً موضوعياً . لأن كثيراً من تصرفنا يعود إلى الغرائز التى نندفع بها أحياناً اندفاع الحيوان أو نسلط عليها الوجدان بالتعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته .

ومهما حقر الانسان وهان وانحط فانه يستطيع ، عندما يتأمل عقله ، أن يقول : ما أعظمنى ! أى ما أعظم عقلى الذى يتجرد من غرائزى ، ويبحث النجوم والأخلاق والشرف والسياسة ومستقبل البشر وفلسفة الكون وتطور الاحياء .

ومهما عظم الانسان وسما ونضج فانه يستطيع ، عندما يتأمل غرائزه ، أن يقول : ما أحقرنى ! أى ما أحقر هذه الغرائز التى اندفع بها إلى الطمع والحسد والعدوان والاقتناء والانغماس والنهم والشر !

ولأن الانسان عرف الخسة التى تنحدر اليه غرائزه وأحس مضض النفس وصداع القلب فى المواقف التى اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لأنه عرف هذه المواقف ، عمد فى كثير من الأحيان إلى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك . ومن هنا نشأت الرهبنة

فى بعض الأديان انكاراً للغريزة الجنسية ولبعض الغرائز الأخرى كالاقتناء والتسلط والحسد والانغماس الخ كأن الغاية أن نعيش بالوجدان والتعقل .

ولكن هذا الانحياز نحو التعقل وانكار الغرائز لا يطيقه إلا الأقلون . بل يجوز لنا أن نشك حتى فى هؤلاء « الأقلين » وهل أطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقيت هــــذه الغرائز كامنة مختبئة فى أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثورة على العقل فقط بل أيضا للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ ويتصرفوا التصرف السيء .

ونحن نعرف من السيكلوجيــة أن الغريزة وقت التهابهــا عندما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلى وتطلب المنفس والمخرج فاذا لم تجدهما اندست وبقيت بقوتها تبحث عن المخارج الضعيفة حتى إذا وجدتها انفجرت فلا يكون منها غير الأذى الفــادح لشخصيتنا . وأولئك الذين حبسوا الغريزة الجنسية مثلا لم ينجحوا قط فى الغائها ومحوها . وقصارى ما وصلوا اليه عربدة جنسية مختلفة الألوان والاسماء . أو هم قد خدعوا أنفسهم من حيث لايدرون فاتجه نشاطهم الجنسى إلى ألوانــــ قاتمة من السلوك والتصرف تؤذى المجتمع وتفتت شخصياتهم

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لأننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتنا ، إذ أننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما أى أن نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذى نعيش فيه دون قمع أو جحد .

وفى أغلب الأحوال ينتهى معنى التهذيب للغرائز إلى الاعتدال فلا نسرف فى الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نغلو فى الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة « غريزة » من الكلمات الغامضة لأننا نجهل أصلها هل هو طبيعى أم اجتماعى . ولكننا عندما نتأمل نشاطنا الاجتماعى كله ، ذلك النشاط الذى ينظمه العقل وإن كان مرجعه غريزياً ، نجد أنه يعود إلى مايشبه أن يكون غريزة واحدة هى شهوة الأمن والطمأنينة .

وهذه الشهوة أصيلة فى الطبيعة البشرية وهى التى تدفعنا إلى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس فى الكسب كما أنها هى الأصل فى الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الأشياء مدفوعين بالخوف أى الرغبة فى الطمأنينة ثم ننساق فى عادات هذا النشاط التى تتملكنا فلا نعرف أين نقف . كتلك البهيمة التى نشدها إلى الساقية فتدور ونجرها مكرهة حتى إذا جئنا كى نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت فى دورتها بقوة الاندفاع الأول

فهناك مثلا من ينساق لغريزة الخوف ويطلب الطمأنينة بجمع المال . وهذا حسن إذا عرف أين يقف ومتى يقنع بمقدار من المال يحقق هذه الطمأنينة . ولكن بعيد جداً أن يعرف هذا لأنه حتى بعد أن يحقق هذه الطمأنينة ويجمع من المال ما يكفيه هو وعائلته ينساق فى عادة الجمع . فلا يكون المال خادمه بل سيده الذى يستبد به ويحمله على الجهد أكثر من عماله الذين يخدمونه حتى ليصل إلى مكتبه أو متجره قبل دخولهم ويخرج بعد خروجهم

هذا هو شأن كثير من الناس الذين يشقون لأنهم ينساقون مندفعين بغرائزهم دون أن يسلطوا عقولهم عليها فيعتدلون وينظمون نشاطهم كي يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شأن الغرائز أنها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاء النوع . وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل أن تجهزنا بالعقل وذلك كى تكفل لنا البقاء والتغلب فى ميدان التنازع بين أنواع الحيوان وأفراده للبقاء . اعتبر مثلا غريزة التناسل . فان رجلا واحداً ، واحداً فقط ، يحمل فى جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفى لتلقيح أناث النوع البشرى كله . ونجد مثل هذا الاسراف فى سائر الغرائز . فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبة فى التسلط بامتلاك هذا الكوكب إذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك ونابليون وهتلر . وحين نشرع فى الاقتناء نتوهم أننا يجب أن نجمع ما يكفينا الف سنة .

وقيمة العقل أنه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال ولكن بلا زهد أو نسك . أى بلا انكار للغرائز . وقد يكون لقليل من الزهد قيمة فى التذاذ العيش أى فى التأنق فى الاختيار بالامتناع عن قبول كل مايرد . كالعطش يجعل الشراب أسوغ : ولكن الاستمرار عليه جنون قاتل .

وتقتضينا الحياة الفنية أن نعيش بالعقل والغريزة معاً فى مصالحة ووفاق بين الاثنين . ولكن فى تحيز نحو العقل لأن العقل إنسانى والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الانسان الانسانى والانسان الحيوانى هو أن الاول يعتمد فى الاكثر على وجدانه وعقله فى حين يعتمد الثانى فى الاكثر على غرائزه .



كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات موطرية أو انفجارية . وهى فى حال الأولى تكسبنا الطاقة التى ننبعث بها إلى النشاط الذهنى أو الجسمى . ولولا هذه القوه الموطرية لما تحركنا إلى الطموح أو الدراسة أو الكسب . وهى لذلك جهاز نافع أيام الصحة . ولكنها تستحيل إلى قوة انفجارية معربدة أيام المرض نتطوح بها إلى الجنون أو الشذوذ أو الاجرام .

والعواطف فى مجموعها اجتماعية أى أننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح أن هناك عواطف نرثها وراثة طبيعية كالعاطفة الجنسية أو عاعفة الجوع إلى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفة « الطبيعية » تتخذ لونا اجتماعيا .

والمجتمع الذى نعيش فيه ، بما له من طرق فى كسب العيش وأساليب الانتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل شخص منا . فاذا كنا نعيش فى نظام اقتصادى يقوم على المباراة فان صفات الأنانية والغيرة والرغبة فى التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا إلى العمل والكسب ، وأحيانا تستحيل هذه الصفات إلى عواطف سيئة . كالحسد والتسلط والخوف .

وتحدث لنا عواطف أخرى إذا كنا نعيش فى مجتمع تعاونى

ليس فيه سيد ومسود وغنى وفقير وكانز ومحروم كما هى الحال فى المجتمعات الاشتراكية .

ولأننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة ، فان جميع الرذائل التى تستتبعها المباراة تتخذ شكلا عاطفيا فى نفوسنا . ولذلك نشقى كثيرا بالأنانية والحسد والرغبة فى التفوق والاقتناء والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادى محدود الفرص . فقد يجد غيرى فرصة لا أجدها أنا فأبتئس لتخلفى وأغار من تقدمه وأحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذينى أو هى تبعثنى على الافراط فى الجهد حتى أموت قبل الأوان بزيادة الضغط للشرايين أو بعجز القلب أو بالاختلال فى التمثيل السكرى أو قد أبقى مريضا بهذه الأمراض وغيرها وأشقى بها . وهذا إلى هموم لا تنقطع تغشى نفسى بالغم والكآبة وقد تحملنى على الانتحار .

ولذلك نحتاج ، كى نعيش الحياة الفنية فى هناء ، أن نسوس عواطفنا حتى تبقى موطرية تدفعنا إلى السير متئدين ولا تكون انفجارية تثور بنا وتبددنا . وأول ذلك أن نعرف بوجدان يقظ وتعقل متزن أننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة . وأنه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب أن نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذى نستضىء به . فلا تتطوح فى مطامع لا نقوى

على تحقيقها فنكون لها عبيداً نجرى ونهرول طوال حياتنا كأننا مسخرون فى جمع المال واقتناء العقار .

وليس هنا مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى نثبت للقارىء أنها كلها تعود إلى مجتمعنا . فان غيرة المرأة من حماتها ؛ أو العكس . وكذلك مناكدة الرئيس لمرءوسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الأولاد من الأخطار ، كل هذه العواطف تعود إلى نظام نفسى ينهض على أساس المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه .

وقصارى ما نستطيع أن نبسطه فى هذا الفصل هو نصائح موجزة نبغى بها علاج المجتمع الاقتنائى الذى نعيش فيه . أى علاج الفرد مما تجلبه عليه العواطف التى غرسها فيه المجتمع . أما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة إلى التعاون ومن الاقتناء الفردى إلى الاقتناء العام .

١ — من شأن العواطف أنها لا تؤذينا إذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة . أى وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فنحن نتحمل الافلاس التام ، أو موت الابن أو الأم أو كارثة الغرق أو الحريق أو الطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة التى تناكدنا كل صباح على الطعام أو القهوة . . ولا نتحمل

الزوجة معاكسة حماتها . ولا يتحمل الطالب توبيخ أبويه كل يوم لفشله فى الامتحان . أى إذا تكررت المناكدة أو المعاكسة كل يوم ، ولو كانت لأسباب تافهة ، أدت بها إلى الانهيار العصبي الخطير . لأن العبرة بالتكرار .

٢ — لهذا السبب يجب ألا تعيش الزوجة مع حماتها أبدا . وإذا كانت هناك ظروف تضطرهما إلى الاشتراك فى العيش فليكن هذا على وجدان منهما . أى يجب على كل منهما أن تعرف أنها فى حالة شاذة وأن تحتاط من الوقوع فى المناكدة أو المعاكسة .

٣ — يجب على الأب ، إذا فشل ابنه أو بنته فى الامتحان ، ألا يعمد إلى تقريعه كل يوم . لأن هذا التقريع قد يؤدى إلى انهيار عصبي خطير . وخاصة إذا كان بين ١٧ ، ٢٥ .

٥ — الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها .

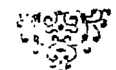
٦ — إذا ثقلت العاطفة فان النشاط الجسمى يخفف من ثقلها . حتى المشى والجرى يخففان من ثقلها .

٧ — من الواجب أن ننبه الرؤساء فى المصانع والمكاتب إلى أن يكفوا عن معاكسة مرءوسيهم حتى لا يكون أحدهم

كالحماة التى تبعث بزوجة أبنها إلى المارستان لأنها لاتفتا توبخها وتبخسها .

٨ — يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفال الاربعين للمتوفى أو التفجع فى الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظـاهر تحيي الحزن القديم عند الغير .

وهذا أحسن ما نستطيع أن نقول فى مجتمع المباراة الذى نعيش فيه . وهو مجتمع سيء فى اساسه .



التربيــة

لا تقل طفولتنا البيولوجية عن ١٧ سنة . ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة . ومعنى هذا أن مدة التربية عندنا طويلة . وذلك أننا لا نولد بأجهزة من الغرائز التامة التي نعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التي تسبح عندما تخرج من بيضها ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيور التي تحتاج إلى شيء من التعليم كي تطير وتجرؤ على اقتحام الجو .

ذلك أننا نحن البشر قد استغنينا عن الكثير من غرائزنا أو قد وضعناها في الصفوف الخلفية من كياننا النفسي وأقمنا العقل وصياً عليها يديرها ويوجهها. حتى أننا لا نأكل ولا نتناسل في استسلام كامل للغرائز إذ أننا نسلط العقل هنا أيضاً ونجعل له التصرف الأعلى . وصحيح أننا لا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز ولكننا نستطيع التصرف بها وتوجيهها .

وتسلط العقل يجعل التربية ضرورية لكل فرد منا. وخاصة إذا كنا نعيش في مجتمع راق أي أرقى وأكثر تركباً من المجتمع الزراعي أو البدوي . وتتجه التربية في عصرنا إلى ايجاد عادات ومهارات نكسب بهما العيش.. وليس من شك في قيمة التربية وخاصة في مجتمع لا يزال يعيش على اقتصاديات القلة وليس

على اقتصاديات الوفرة التى يلتمع فجرها الآن فى الأمم المتقدمة فى الانتاج الآلى ». ولكن التربية يجب أن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب .

وكذلك يجب ألا ترمى التربية إلى تعليمنا المعارف والثقافة فحسب وانما يجب أن توجهنا الوجهة التى نتعلم بها وحدنا . وكى نوضح قصدنا نطلب إلى القارىء أن يقارن بين أرسطوطاليس وبين تلميذ فى السنة الثالثة أو الرابعة من مدارسنا الثانوية . فليس من شك أن التلميذ يفضل هذا الفيلسوف فى كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن ارسطوطاليس يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا إلى خمسين أو ستين سنة حتى يصل إليه . بل قد لا يصل إليه لأنه لا يجد من يرشده .

ليست التربية السديدة أن أعرف وإنما هى أن أعرف كيف أعرف أى كيف أعلم نفسى وأزيد معارفى وأكون طالباً مدى حياتى . وليست التربية أنى أعرف كيف أكسب العيش بل هى أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب فى نمو لشخصيتى وترقية لذهنى . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفى للكسب ، إذ يجب أن تهدف إلى النجاح فى الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة .

والنجاح فيها يقتضى النجاح فى الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفنى والذهنى الخ . .

يجب أن تهدف التربية إلى أن تحمل كلا منا على الاهتمام بالأثاث الأنيق والرسم الفنى كما نهتم للكسب فى مجتمع اقتنائى يعيش أفراده بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا إلى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه إلى تقدير ألوان الجمال فى الطبيعة : القمر فى الريف والشمس فى البزوغ والبحر والقفر والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها .

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شىء إلى درس الفنون وإلى ترقية الإحساس الفنى بحيث نسلك ونتصرف ولنا فى كل ذلك مأرب فنى . حتى إذا سرنا فى حديقة استمتعنا بالزهور وهى على شجرتها فى اشراقها وإيناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها .

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاى

ويجب أن نزداد رغبة فى امتلاك هذا الكوكب نفسيا وذهنيا وفنيا كلما ازداد هو تقلصا بالمخترعات الجديدة حتى

تتسع آفاقنا ، حساً وذهناً ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل تشمل شئون العالم كله والبشر جميعهم .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن أى تزيد الوجدان حتى نعيش فى يقظة ونطالب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون . ولا نعيش ذاهلين ذهول الحيوان الذى تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو يعود فى الاغلب إلى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبلد ذهنه ، وبين شيخ لا يزال له حدة وفتوة ويقظة وذكاء ، يعود إلى أن الأول لم يتعود القراءة ، وأن الثانى قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مألوفة فى الذاكرة سهلة الاستحضار . ولما كانت المعانى مجسمة فى كلمات فان من البعيد جداً أن تجد رجلا يهرم ويتبلد ذهنه مادامت الكلمات حاضرة معدة لتنبيهه

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة لأن الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة وتبقى هذه المرانة إلى الشيخوخة

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية . أى يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية . وقد أحدثت لنا القنبلة الذرية وجدانا بهذا الاحساس . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا بؤرة أى

نقطة للتعمق والتخصص فى المعارف . ولكن يجب أن نتشعع من هذه البؤرة العميقة إلى التوسع فى الافاق الذهنية الرحبة. كما يجب أن يكون كل منا سقراطياً أى يعرف أنه لايعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات ويبقى على هذا حتى يموت « وعلى صدره كتاب » كما قيل عن الجاحظ

وفى المستقبل القريب ، بل القريب جداً ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة إلى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذى سيزيد عاما بعد آخر ، وكثير مناحتى فى عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أوخمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف ينتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنا إلى النغمة التى نفتأ نعزف بها وهى أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة وكيف يتعمقون فى حياتهم ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيوا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاستطلاعى اليقظ الذى يشتهى المعارف ويعرف أيضا أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : أجل ، هو الحياة فى تعمق وتأنق . وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق

وأخيرا نقول إن التربية الحقيقية هى التربية الذاتية . فلا ييأس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعى أو لأن ظروف حياته الماضية لم تهيء له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع ان يشرع فى اى وقت وان يضع البرنامج الدراسى الذى تحتاج إليه تربيته وهو اقدر انسان على وضع هذا البرنامج إذ هو الوحيد الذى يعرف حاجاته وكفاءاته

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

نحن نعيش فى المجتمع المتمدن بدستور أخلاقى نأخذه كله أو ٩٩ فى المئة من العائلة التى نشأنا فيها والشارع الذى مارسنا فيه اختبارات الطفولة ومن زملاء المدرسة والحرفة ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم. ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التى يعينها لنا.

وكثيرا ما نأخذ بقيم و أوزان فاسدة لأن المجتمع الذى نعيش فيه فاسد. وكثيراً مايخفى علينا هذا الفساد فتندفع فى التيار لا نقف ولا نتردد. ولكن أحيانا نقف ونتردد. وعندئذ يكون التقلقل والبحث والتجديد. ثم تكون قيم وأوزان جديدة

والقيم والأوزان إما أن تكون اجتماعية وإما أن تكون بشرية. وإذا كان المجتمع راقيا كانت كل أو معظم أوزانه بشرية. ومثال الأوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل وصيانة الصحة ومكافحة المرض. وتنوير الذهن بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذ ولا ثراء مبطر. ومثال الأوزان والقيم الاجتماعية التزين واقتناء القصور والضياع والتفاخر بالولائم وابهة العرس أو المأتم ونحو ذلك.

وكى نزيد الايضاح نفرض أن صديقاً عائلا مات وترك زوجة وجملة أولاد . فالرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المأتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزى أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قدأنجز جميع واجباته. وربما قد يبالغ فى هذه الواجبات فينعيه فى الجرائد . ولكن الرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الأرملة وأولادها فاذا وجد أنهم فى حاجة إلى المال تبرع من جيبه وجمع من غيره ما يقيتها . ثم هو يرعى الأولاد بالنصيحة ويهىء لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التى فقدتها بموت العائل .

ومن هنا نعرف أن الضمير الحسن هو الضمير البشرى وليس هو الضمير الاجتماعى .

ومن هذا المثال الذى ذكرناه نستطيع أن نتوسع فنقول :

إن للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن للمال ، بعد أن يتجاوز حداً ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذى ينشد فى الفتاة جمالها إنما ينشد قيمة بشرية ولكنه عند ما ينشد ثراءها انما ينشد قيمة اجتماعية . ومن هنا أيضاً نقول أن للزواج قيمة بشرية ولكن أبهة العرس وجهاز العروس ونحو ذلك تعد من القيم الاجتماعية .

وكثيراً ماتستهلك القيم والأوزان الاجتماعية مجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع فى جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخمسين أو الستين لأن المجهود فى هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفى الوقت نفسه حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية. وكثير من الناس يغمرهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك تجد أن كل اهتمامهم ينحصر فى شراء اتومبيل من الطراز الجديد أو يغمرهم الهم والنكد لأنهم فقدوا صفقة تجارية . مع أن زيادة ألف جنيه أو نقصها فى حساب البنك لن يضيرهم

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية فى التفوق فى حرفته . ثم يفشل فى عائلته أو مجتمعه ولا يدرى أن النجاح يجب أن يكون كليا يشمل العائلة والمجتمع والحرفة والفراغ. وكثير من الأمراض النفسية الفاشية فى أيامنا تعزى إلى الاندفاع فى هذه القيم الاجتماعية دون التفكير فى القيم البشرية . وذلك «الرجل الأجوف» الذى تحدث عنه الشاعر اليوت إنما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه فنسى كلمة الامبراطور ماركوس اوربليوس حين قال أن أعظم

ما يشتاق إليه ويتمناه فى هذه الدنيا كسرة من الخبز مع قطعة من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة .

والمحك الذى يفصل بين القيمتين والوزنين أن نسأل عند ما نسأل عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم ، مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

وحين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ماعنده ؟

فنجيب بأن عنده منزلا به أثاث فاخر أو عنده ضيعة ، واتومبيل وعشرة آلاف جنيه فى البنك ولقب بك الخ .

والحياة الفنية تقتضينا التميز بين القيم وأن نجعل للقيمة البشرية المكانة الأولى فى جميع اعتباراتنا سواء فى أنفسنا أم فى غيرنا . والرجل الطيب هو فى النهاية الرجل البشرى وليس الرجل الاجتماعى أى الرجل الذى يتعمق ويصل إلى الجذور

وعند ما نتأمل الأنبياء بل كذلك الفلاسفة والادباء ، نجد أن كل اهتمامهم كان منصرفا إلى تغيير المجتمع بوضع القيم البشرية مكان القيم الاجتماعية

الاستغناء أم الاقتناء

نحن نعيش فى مجتمع « اقتنائى » ننشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لى وهذا لك . وعلى أن أحدنا يسر بأن يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فنزداد رغبة فى الاقتناء واندفاعا نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن فى تعب ، لأننا لم نقتن كما أقتنى فلان الذى كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا فى مباراة نرقبهم حين تخرج إحدى بناتهم فى ثوب زاه ، أو حين نقرأ فى الصحف عن الترقيات والعلاوات ، فنمتلىء حسداً لأن هذا الشخص الذى كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الأقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا .

ونحن ننشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا فى حاجه إلى زيادة ولكن لأن المجتمع « الاقتنائى » الذى نعيش فيه قد غرس فينا هذه العواطف . فاكسبنا هموما شخصية تنزع بنا إلى الجهد وتحمل المتاعب كى نتفوق فى الجمع وتستمر فى الزيادة . ونبقى على ذلك طوال حياتنا ، حتى اننا نرى ناسا قد تقدمت بهم السن وأثقلتهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم فى هموم دائمة وحسابات لا تنقطع ، حتى

ليتساءل الانسان وهم فى هـذه الحال : هل هم يملـكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هى التى تملـكهم ؟

وأعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء، ان هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كى يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التى لاتترك له فراغا .

وقد أصبحت اعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى اننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب فى تغيير الجو من الحر إلى البرودة ، بل لأننا نحب ان نفر من هـذه الاعباء . فالتغيير هنا سيكلوجى وليس مناخيا . وعندما نتأمل المصطافين فى رأس البر او الاسكندرية ، نجد انهم ينطلقون من القيود ويحاولون ان يتصلوا بالطبيعة فى بساطة من التكاليف والأعباء تشهد على انهم كانوا متعبين بما كانوا يقتنون من ملابس غالية مرهقة فى المدن

والحق اننا عند ما نتأمل معيشتنا فى وسط متمدن ، وما يجلبه علينا هذا الوسط من تكاليف وما يطالبنا به من مطامع نجد اننا جميعا فى حال سيئة من القلق النفسى ، مسوقين بأوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين . وهذه الأوهام هى فى نهايتها مصطلحات ليست لها قيمة بشرية، وهى لاتزيدنا إلا أعباء وهموما

إذ نستطيع أن نستغنى عنها . فقد استغنى شبابنا مدة الحرب الأخير مثلا عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة عند ما تخلصوا من هذا التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات أيضا ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن إلا بالراحة والزيادة فى الصحة بهذا الاستغناء . أجل . . إزداد الجميع صحة لأن الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد فى تعرض الأعضاء لأشعة الشمس ولأثرها الصحى فى تنبيه الجسم .

وأعود فأقول أن معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ، بل أحيانا مجهودات مضنية مميتة ، فى الاندفاع نحو الاقتناء إنما هو مصطلحات اجتماعية لا أكثر ، أى ليس لها فى نفوسنا حاجة طبيعية . فحاجاتنا الطبيعية قليلة جداً . وقد قنع غاندى مثلا بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أو أربعة فى العام كله . فهو يكتفى من اللباس بقطعة من القماش غير مخيطة يتلفع بها ، بينا يحتاج أصغرنا إلى عشر قطع كى تغطى بها جسمه كأنها ضمادات مجروح ، أو كأنها خرق ملونة لمهرج على مسرح !

وإذا كنا نحن نستبعد أو نستغرب معيشة غاندى ، فليس ذلك لأن غاندى مخطىء ، بل لأننا نعيش فى أسر مصطلحات اجتماعية قد تغلغلت فى نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف والرجل الحكيم هو الذى يعرف كيف يستغنى دون أن

تنقص حاجاته الضرورية . ومن هنا قيمة الدعوة إلى الحياة البسيطة ، أي الى بساطة العيش . وهذه الدعوة هي نداء قديم يتردد صداه عبر التاريخ منذ آلاف السنين . وكلنا نذكر « ديوجينيس » الاغريقي الذي لقبه الاسكندر المقدونى وسأله عما يستطيع أن يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل مايطلبه إنما هو أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه . ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديوجينيس كان على حق . وكان سعيداً برميله الذي كان ينام فيه . فى حين كان الاسكندر شقياً بما جلب عن نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعمد الاسكندر إلى الانتحار وهو فى الثلاثين ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء إلى الفتح والحرب . وكان ديوجينيس يندفع بروح الاستغناء إلى العيش فى برميل . وكلاهما مسرف . . ولكن اسراف ديوجينيس أقرب إلى الحكمة من اسراف الاسكندر .

وغاندى فى عصرنا يجرى على مذهب الفيلسوف الاغريقى ويجحد مذهب الفاتح المقدونى ، وهو حكيم فى هذا السلوك .

وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بعبء التكاليف

المرهقة التى تفرضها علينا الحضارة . رغم أن حضارة العصر الذى كان يعيش فيه ، هى البساطة والسذاجة بالمقارنة إلى ما نعيش نحن فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة . ولكن مدينته ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة إلى المدن التى نعيش فيها الآن . فلم يكن فى مدينته ترام أو سيارة أو راديو ، ولم تكن مضار المباراة وما تجلب من حسد وهزيمة وقلق جزءا من مائة مما يكابد أبناء المدن فى هذه الأيام ، وقد ترك بعده « ثورو » الأمريكى المدينة الأمريكية وعاش فى الغابة وترك ادوارد كاربنتر المدينة الانجليزية وعاش فى الريف . وفعل كذلك تولستوى وغاندى

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة نجد أن الحكمة فى جانبهم والجنون فى جانبنا

فقد عاشوا بالاستغناء ، فى حين نعيش بالاقتناء . وامتازوا بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من الواجبات والاثقال التى ننوء بها ونزعم أننا بفضلها سعداء مع أن الحقيقة أننا مسخرون فى الجمع والاقتناء ، ثم فى زيادة الجمع والاقتناء .وسنظل على هذا المنوال حتى نموت بالنقطة أو السكتة مجهودين مرهقين

وأسوأ ما فى هذه الحيـاة التى نعيشهـا ونحن نعدو وراء المطامع وكأننا نجرى فى سباق ، أننا لانعرف ماذا نقتنى ولمن نقتنى . ثم هذا العدو فى هذا السباق لايتيح لنا فرصة الوقوف كى نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين فلا يلتمع لنا ذكاء ولا يتردد فى رؤسنا خاطر ولا نتسائل : لماذا كل هذا ؟

نعيش لنحسب أم نعيش لنحيى

غاية الحياة هي الحياة . وليست غايتها أن نكون أثرياء أو أصحاء أو علماء أو سعداء . لأننا إذا كنا نطلب الثراء أو الصحة أو العلم أو السعادة فإنما لأن كل واحد من هذه الأشياء يؤدى فى النهاية إلى الحياة المثلى التى نتمناها .

فيجب لهذا السبب إلا نخطىء الهدف . وهو أن نحيى لأجل الحياة . وإذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فاننا لن تنحرف . إذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم أنحرافاتنا .

وأعظم ما نقع فيه من انحراف بل أعوجاج هو ان المجتمع يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على ان ننسى ان هدف الحياة هو الحياة . حتى اننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، اى كلنا ، ننتهى إلى عادات فكرية ونفسية لو انها امتحنت فى نزاهة وذكاء لكانت اقرب إلى الجنون والشذوذ منها إلى التعقل السوى .

واسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هى ان نحيل الحياة إلى حساب . ذلك ان احدنا ينسى انه يجب ان يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعا ومعرفة وحكمة . ينسى كل هذا ثم يرصد وقته وجهده فى الحساب . وما هى

زيادة دخله هذا العام على دخله فى العام السابق؟وماذا يستطيع أن يشترى بما أدخر مما يزيد هذا الدخل ؟ الخ

وأحيانا تستحيل هذه العادة إلى جنون . فلا يشتغل الرأس إلا بها ولا يتحرك النشاط إلا لأجلها . حتى أننا لنرى لصاحبها إذ نجد أنه مأسور قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام او الشراب او التنزه اوالاجتماع بالأصدقاء . وقديسأل احدنا عند ما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى كثيراً ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر فى الشراب او النساء : أيهما افضل ؟

وليس هذا السؤال لأن الاستهتار حسن .ولكن لأن قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان فى الاقتناء اسوأ من اى استهتار . لأن اقل ما يقال فى المقارنه هنا ان المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف فى الاستمتاع إلى حد الضرر . ولكن هذا الحاسب لا يستمتع بتاتا إلا كما يستمتع النيوروزى اى المريض النفسى بعادة تملكته واستبدت به وهى بعيدة عن العقل بل متمردة عليه .

ونحن فى عصرنا الحاضر نحتاج إلى كاتب مثل د.ه. لورنس كى يبين لنا ان واجبنا الأول فى الدنيا هو ان نعيش.فقد ألف هذا الكاتب قصته « عاشق الليدى شاترلى » واسرف فى دعوته

إلى الاستمتاع الجنسي باعتبار انه اهم من الاعتبارات الاجتماعية التي تنكر علينا ملذاتنا وتشغلنا بألوان اخرى من النشاط الذى ننحرف به ونزيغ عن هدف الحياة وهو ان نحيي ونستمتع . وليس شك انه اسرف بل انه وقع فيما اراد ان يحذرنا منه . إذ هو جعل الاستهتار الجنسي هدفاً ، وكأنه اعتقد ان اللذة الجنسية هي كل ما فى الحياة . وهذا خطأ فاضح .

وصحيح ان الاستهتار الجنسي ، فى القيم والأوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر فى الحساب لاقتناء المال وزيادته. ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم ان اللذة الجنسية جزء من الحياة وليست الحياة جزءاً من اللذة الجنسية. فاذا نحن تحرينا الحياة المثلى فاننا بلاشك لا نهمل الملذات الجنسية ولكننا ايضا نضع هذه الملذات فى مكانها فلا تتجاوزه وتطغى على حياتنا كلها . إذ ان هناك ملذات اخرى تحتاج اليها الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء الحكمة.

واسراف لورنس فى الاكبار من شأن اللذة الجنسية انما هو مبالغة يرمى بها إلى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة فى اندفاع الناس إلى جمع المال وقضاء العمر فى الحساب . حتى اننا لنجد رجلا فى الستين او فى السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجعها والاهتمام بدخله والتفكير فى شراء عقار جديد او نحو

ذلك . مع أن كل ما بقى له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين، هو أحوج فيهما إلى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل أن يغادر هذه الدنيا .

ووطأة المجتمع علينا هى التى تسوقنا إلى أن نستبدل الحساب بالحياة . وإلى أن نسخر انفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ فى نفوسنا بحيث نعيش فى هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جراداً ننشط نشاطاً غريزيا، لا نعرف غايته .

والرجل الذى ارتفع إلى أن يجعل من حياته فناً يجب من وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم المجتمع وأوزانه قد غمرتنى وسخرتنى حتى صرت آلة جمع وطرح للحساب أى لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهى أن نعيش كالأطفال أى أن ننزل على القيم البشرية الساذجة نحب الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل .

العمل والفراغ

كي يكون نجاحنا في الحياة كلياً شاملا وليس جزئياً خاصاً يجب أن نواجه ونحل أربع مشكلات أصلية هي :

١ — مشكلة العمل الذي نرتزق به

٢ — مشكلة الفراغ الذي نقضيه مختارين

٣ — مشكلة الزواج والعائلة والأولاد

٤ — مشكلة المجتمع الذي نعيش فيه وتنظيم علاقاتنا المختلفة به

والإهمال في واحدة من هذه المشكلات يتعسنا ويجعلنا في خصومة دائمة إما مع غيرنا وإما مع أنفسنا بحيث نعيش في غير يسر كأننا نكافح تياراً بلا هدف يقتضي المكافحة . والقارىء لهذا الكتاب يعرف أننا نعزف على لحن يتكرر هو أن النجاح يجب ألا يقتصر على ناحية أو جملة نواحي من الحياة وإنما يجب أن يكون قبل كل شيء نجاحاً في الحياة كلها

ومشكلة العمل الذي نرتزق به تبرز في عصرنا بروزاً واضحاً لأن العلم لم يستخدم في الانتاج إلى الحد الذي تتوافر فيه حاجات الناس ، ولو استخدم لانتقلت بؤرة الاهتمام من الارتزاق بالعمل إلى الإنتفاع بالفراغ بل كذلك كانت بؤرة الاهتمام في المدارس والجامعات تنتقل هذا الانتقال

وإلى أن نصل إلى هذه الحال التي نرجوها يجب أن نجعل الاهتمام بالعمل الارتزاقي في مقدمة شئوننا التي نتدرب لها ونثابر على تفهم تفاصيلها . وأعظم ما يجب أن نهتم به هنا هو اختيار العمل بحيث يلائم ميولنا وكفاءاتنا معاً ، لأن معظم التعس الذي يعانيه الناس من أعمالهم يعود إلى أنهم لم يختاروها بل قضت المصادفات والظروف بأن « يقعوا » فيها وأجبرتهم حاجات العيش على ممارستها كارهين أو متبرمين . وهذه الحال تجعلهم يتبرمون بالحياة كلها أي يكرهون المنزل والنادي والأصدقاء والكتب لأنهم يكرهون أعمالهم ،كأن حياتهم قد غشيت بغشاء من التبرم والسخط

وعلى هذا نقول ان اختيار العمل الملائم الذي نحبه ونستطيعه هو نصف الانتصار في معركة الارتزاق بل ربما أكثر ، لأننا بعد ذلك ننشط إلى الحذق والمثابرة والدرس . ونحن في العادة لا نشرع في الاختيار قبل السادسة عشرة من العمر ، ولذلك نحتاج قبل ذلك إلى الارشاد لأننا نجهل ميولنا وكفاءاتنا ونحتاج إلى من يحللهما ويخبرنا عن حقيقتيهما

وكثير من التخلف الذي يصيب الموظف يعود إلى كراهته لعمله لأنه أساء في اختياره فهو يتهاون ويتثاءب ويكره رئيسه او يعتقد أنه يرهقه بالواجبات . بل احياناً يحس صداعا بسبب

هذه الكراهة وهو يتعلل بهذا الصداع لطلب الأجازات او للزيادة فى التهاون والتكاسل حتى تسوء العلاقات بينه وبين رؤسائه

وعلاج هذه الحال ، إذا كانت الوقاية لم تتخذ من قبل ، ان يكون باستخدام الفراغ بحيث يعوض من سأم العمل . وذلك بأن نمارس هواية ما تشغلنا وتعوضنا من النفور من العمل وتعيد الينا اتزاننا. ويجب لهذا السبب ان يكون لكل منا هواية بل هوايات تتوافر بها اهتماماتنا ، وعندى ان اعظم هذه الهوايات هو القراءة وتعود الدرس ، لأنها الهواية الباقية إلى سن الشيخوخة وهى فى ظاهرها هواية واحدة ولكنها فى صميمها جملة هوايات ، لأن الذى يعشق الدراسة يجد نفسه مشغولا بألوان مختلفة من الاهتمامات يقرأ الجريدة والمجلة ويناقش فى السياسة وقد يكافح لمذهب فيها . كما يقرأ الكتب ويقتنيها ويضع المشروعات لدراسات جديدة فيتجدد بذلك شباب ذهنه وتتسع آفاقه العملية والأدبية . ومثل هذا الشخص لن يسأم فراغه ولن يقضيه ذاهلا فى غيبوبة نفسية على القهوات ولن يقع فى العادات السيئة كالتهالك على التدخين او الشراب

والرجل الموفق هو الذى يجعل هوايته مرتزقة . ولكن يجب أن نعترف ان هؤلاء قليلون فى مجتمعنا . حتى الأديب

الذى يرتزق بقلمه لا يكتب على الدوام مايهوى . لأن الضغط الاقتصادى يحمله فى كثير من الأحيان على ألوان من الإنتاج الكمى لا الكيفى يهدف منه إلى الكسب لا الى الفن

ولهذا نحتاج جميعنا إلى أن يمارس كل منا هواية ما تحل بها مشكلة الفراغ ، ومتى حللنا هذه المشكلة فان العمل الارتزاقى يسهل علينا فلا يكون ذلك المضض الذى نراه فى كثير من الموظفين وهم إلى مكاتبهم يتجهمون لاوراقهم ورؤسائهم



العائلة والمجتمع

النجاح العائلى أكبر من النجاح الحرفى . ويجب أن يكون كذلك لأن القيم العائلية بشرية فى حين أن القيم الحرفية اجتماعية. والعائلة هى زوجـــة وأولاد وبيت . والرجل الذى وفق إلى اختيار زوجته واستمتع بحبه لها وعنايتها به وأعقب أولاداً وتعب لهم حتى نموا وأينعوا أمام عينيه ، مثل هذا الرجل قد حظى بنصيب عظيم من متع الحياة .

واختيار الزوجة هو ، مثل اختيار العمل ، نصف المعركة. لأننا إذ لم نحسن الاختيار تعرضنا لألوان من التعس كنا نستطيع تجنبها . وأعظم ما يتيح لنا الاختيار الحسن أن نطيل مدة الخطبة حتى نعرف بالاختلاط شخصية الفتاة التى سنتزوجها . وواضح أن الخطيبين يحرصان مدة الخطبة على أن يظهر كل منهما للآخر بأحسن مظاهره . ولكن حتى مع هذا الحرص يستطيع كل منهما أن يفطن إلى الاتجاهات والميول فى الآخر

ويجب أن يتجنب كل منهما اغراء الفتنة . فقد يفتتن الشاب بنغمة الصوت أو زرقة العينين أو تورد الوجنتين فى خطيبته. ثم ينخدع بهذه الصفات إلى الانزلاق فى الاختيار السيء .وخير ما يكفل الاختيار الحسن أن يسأل الشاب نفسه : كيف تكون

معاً ، أنا وهذه الفتاة ، فى بيت وحدنا بعد خمس سنوات ثم بعد عشر سنوات ؟ كيف نتحدث وكيف يعاشر أحدنا الآخر وكيف يكون أولادنا معنا ؟

وخير للخطيب ان يختار خطيبته بوجدانه أى فى تعقل ودراية من أن ينزلق فى الاغراء الجنسى . والحب الضعيف مع الأمل فى نموه فى المستقبل يفضل الحب العظيم الذى لن ينمو . ويجب هنا الا ننسى ان الحب هو غير الافتتان . الأول وجدانى تعقلى . والثانى غريزى شهوى . بل هما احياناً متناقضان بحيث إذا زاد الحب ضعفت الشهوة .

ويجب أن يكون للقيم والاوزان البشرية التفضيل على القيم والاوزان الاجتماعية فى اختيار الزوجة . فالجمال والصحة والذكاء قيم بشرية ويجب أن تفضل لذلك على الثراء والمكانة والثقافة لأن هذه قيم اجتماعية . ولكن من الحسن ألا يختار الشاب فتاة من غير طبقته الاجتماعية أو دون ثقافته . لأن التفاوت هنا يعنى تفاوتاً فى الذوق والعادات والاتجاهات . وإذا كان الاختلاف صغيرا فان النتائج لن تكون خطيرة . ولكنها تفدح إذا كان الاختلاف كبيراً . وفى بلادنا ، حيث تتجه العناية الى تربية الشبان دون الفتيات فى أغلب الحالات ، نجد هذا

الاختلاف واضحاً. ولذلك لا بد من التسامح ولكن مع النصح للزوج بأن يعنى بتربية زوجته وتنبيهها إلى ترقية شخصيتها وزيادة ثقافتها.

والتوفيق بين الزوجين لا يتأتى مع الحماة أو الحمى من أية الناحيتين ولذلك يجب أن يعيش الزوجان مستقلين فى بيت منفصل عن الآباء والأمهات . فاذا لم يكن هذا ممكناً للظروف الاقتصادية مثلا فيجب على الاقل أن تعرف هذه الحقيقه وأن يؤسس البيت مع اعتبار هذه « الضرورة » التى تواجه كما لو كانت صعوبة قهرية لا مفر منها . وبهذا الاعتبار يمكن أن تواجه المواجهة السليمة وأن توزن الوزن الصحيح .

وكل ما قلناه عن الشاب ينطبق أيضا على الفتاة .

ويجب على الزوجين أن يجعلا من البيت متحفاً وليس مأوى فقط. فاذا جاء الاولاد صار معهداً حراً للجميع أباء وأولاداً فلا سيد ولا مسود. ويجب أن تقتنى التحف الفاخـــرة وتهيأ الغرف بأغلى الأثاث حتى يجذب البيت الزوج ويصير مرتكز نشاطه واهتمامه . كما يجب أن يكون البيت مضيفة راقية يجد فيه الزائرون متعاً مختلفة من الرسوم الفنية والموسيقى العالية إلى السمر المنير والمناقشة المربية .

والنجاح فى المجتمع يأتى بعد النجاح فى العائلة وهو يحتاج إلى

أن ندرس المجتمع بتتبع السياسة العامة ، عالمية وقطرية ، وإلى أن نطابق بين مصالحنا ومصالحه حتى لا يكون تنافر ، هذا التنافر الذى يبلغ القمة عند المجرمين. لأن المجرم يتصرف وهو على غير وفاق مع المجتمع ويصل إلى غايته وهو على تنافر مع الأساليب الاجتماعية . .

والنجاح الاجتماعى يقتضى العناية بالاصدقاء ورعايتهم وتجنب التفريط فى صداقتهم . وقد يكون الاهتداء إلى صديق وملازمته أمتع متعـــة فى الحياة .

والمجتمع يحتاج إلى المزاج الانبساطى أى مزاج ذلك الشخص الذى يحب الاختلاط ويغشو الاندية والمطاعم والمسارح والمصايف ويميل إلى الزيارات

وصاحب المزاج الانطوائى ينفر من هذه الانبساطية ، ولكن عليه أن يتمرن على ممارستها إلى حد ما . كما يجب على صاحب المزاج الانبساطى أن يتمرن على ممارسة الخلوة والقراءة والدراسة والتفكير إلى حد ما .

والخلاصة أنه يجب على كل شاب أو شابة أن يسأل نفسه : هل أنا نجحت فى حل هذه المشكلات الاربع : الحرفة والفراغ والعائلة والمجتمع ؟ وإلى أى حد بلغ نجاحى ؟

الرجل والمرأة والزواج

نحن نعيش فى بيوتنا أكثر مما نعيش خارجها ، ولن تهنأ حياتنا لهذا السبب إلا إذا عنينا أكبر العناية بأن نجعل بيوتنا حاوية لصنوف الراحة والرغد . وحياة العزوبة هى حياة ناقصة قليلة الاختبارات والمتع . والمتزوج قد لا يطول عمره أكثر من الأعزب ولكن حياته أعرض . وهى أعرض بالمسرات والأحزان التى لا يعرفها الأعزب

ومعظم العمر نقضيه مع زوجة قد عرفناها فى الأغلب بعد سن العشرين أو الثلاثين ، وقد عاش كل منا قبلا فى بيئة تختلف عن البيئة التى عاش فيها الآخر ، ولذلك ليس بعيداً أن نصطدم وأن تحفل الحياة الزوجية بالمتاعب

ولكن هناك ما هو أخطر من هذا ، ذلك اننا نعيش فى مجتمع اقتنائى تحاسدى يجعل الأنانية فضيلة ويحملنا على المباراة واقتناء المال . ثم يشملنا هذا الروح فتعود الأنانية والرغبة فى الخطف والاقتناء والحسد والحقد والبعد عن الحب والتعاون ، كل هذا يعود كما لو كان هو الطبيعة البشرية الأصلية . فاذا تزوجنا عاملنا الزوجة وفق ما تعلمنا وتدربنا عليه فى المجتمع ، فنطالب الزوجة بالخضوع ، ونطالبها بأن تخدم ملذاتنا ، ثم نلتذ

ملذاتنا على انفراد نفسي وفى خطف ونهب كما كنا ، ولا نزال ، نعيش فى المجتمع

وليس هذا المجتمع الذى وصفنا جديداً ظهر فى عصرنا ، إذ هو قديم قد رسخت أخلاقه فى سلوكنا وتصرفنا ، وهو يشق حياتنا الزوجية . وله علامات تخفى أحياناً على الناقد فضلا عن عامة الناس . فان أتوقراطية الرجل ورغبته فى أن تكون زوجته أداة للذة يقابلها دلال المرأة وغيرتها الجنونية من الأوهام والحقائق . وكلاهما يسير بروح الاقتناء والخطف كما لو كان كل منهما تاجراً يشترى رخيصاً لكي يبيع غالياً

وأسوأ ما تعلمناه من هذا المجتمع الأنانى التحاسدى الاقتنائى الذى نعيش فيه اننا ننظر إلى المرأة جنسياً بدلا من أن ننظر اليها إنسانياً . فهى امرأة فقط وليست إنساناً ، نعنى إننا نقتنيها كى تخدم ملذاتنا وتغسل أولادنا فهى ليست الانسان المتعاون الصديق الزميل الذى نرافقه ونصادقه ، ولذلك كثيراً ما تستحيل البيوت إلى مطاعم أو فنادق للأكل أو النوم فقط . وهذا المنظر يوهم الكسب للرجل ، ولكنه فى صميمه يعود عليه بالخسار أيضاً حتى من ناحية اللذة الجنسية ، إذ هى فى هذا النظام تتقلص إلى الخطف والنهب فتجرى وكأنها صرع تشنجى ، أو كأنها طرب جنونى ، يغمر الجسم فى عجل ثم ينطفىء فجأة

لذة عابرة خاطفة لا نذكرها بالحنان والحب والصداقة ولكن بالخطف واحياناً بالقسوة والاغتصاب . وكثير من الشذوذات الجنسية لهذا لسبب يعود إلى المبالغة فى الانسياق فى الصفات الاجتماعية التى يطالبنا بها النجاح فى الكسب والوجاهة والتفوق. إذ أن هذه جميعها تحتاج إلى الخطف والنهب والقسوة والحسد والأنانية بل أحياناً إلى الغش . والشذوذات الجنسية هى فى صميمها غش .

واللذه الجنسية هى فى صميمها وفى أسلوبها نقطة التبلور لاتجاهنا الاجتماعى واخلاقنا الاجتماعية. فليذكر هذا كل شاب وكل فتاة .

ومن هنا الكثير من الرذائل التى تحسب فى ظاهرها رذائل روحية ولكنها فى باطنها رذائل اجتماعية . فان الشاب الذى يخشى أن يتزوج الفتاة المتعلمة إنما هو فى صميمه يخشى المساواة التى لم يتدرب عليها فى المجتمع. إذ هو نشأ فى مجتمع قد غرس فيه الرغبة فى التفوق والتسلط والأنانية والخطف والخوف . فكيف يمارس كل هذه الصفات فى حرفته ومعاملته وينساها فى الزواج ؟ فهو يعامل زوجته تلك المعاملة الحيمة التى تعلمها من البغى حين كان يؤدى ثمن لذته بالقرش والمليم ويخطف هذه اللذة خطفاً. وهذه المعامله ترسخ فيه فلا يعرف كيف يغيرها ، ولو أنه كان

قد نشأ بروح التعاون والحب والمساواة لكانت اللذة الجنسية نفسها لا تتم إلا بهذه الصفات، وعندئذ كانت تكون متبادلة هنيئة للزوجين.

ولهذا أصبح الزواج كأنه صفقة بيولوجية تتم بين الرجل والمرأة لا يسودها الحب والثقافة. أجل، الحب والثقافة. وكلاهما لا يعرفه الحيوان.

ولكن حتى المقارنة بيننا وبين الحيوان لا تدل على أن الكسب فى جانبنا، لأن أقل ما يقال فى الحيوان أنه ينساق بغريزته الساذجة الفطرية ولكننا نحن نفسد هذه الغريزة بوجدان المجتمع الانفرادى القائم على الخطف والخوف والنهب والحسد والاغتصاب. فنحن لا نتعاون فى اللذة الجنسية بل نتخاطف فى طرب مانى وصرع وقتى سرعان ما نفقدهما ونعود إلى ما يقارب اليأس والجمود والنفور.

ولن يتحقق الهناء الزوجى إلا بعد أن يعيش النساء والرجال فى تعاون وما يجلبه هذا التعاون من حب وأخاء ومساواة وطمأنينة واستبشار بالمستقبل. لأن المجتمع الذى نعيش فيه فى الوقت الحاضر يشقينا بالقلق، فنحن نقلق ونخاف، نخاف من الفقر والمرض والهزيمة فى المباراة الاقتصادية والافلاس، وكل هذه الصفات تنتقل إلى العلاقة الجنسية، فتعود هذه العلاقة قلقة غير مطمئنة.

أى أن نظامنا الاجتماعى ينتقل بأساليبه إلى نظامنا الجنسى. فاذا كنا نخاف من الدنيا ونهرول ونخطف ونقلق ونحسد ونؤثر أنانيتنا على مصلحة اخواننا فى المكتب والمتجر والسوق والمصنع، فاننا ننقل كل هذه الصفات إلى العلاقة الجنسية ، فلا نستمتع بالغريزة الفطرية التى يستمتع بها الحيوان بل نفسدها بوجدان سيء من حياتنا الاجتماعية السيئة .

ولذلك نحتاج ، كى تهنأ الحياة الزوجية وتزول الشذوذات الجنسية إلى مجتمع تعاونى سوائى يقوم على الحب وليس على المباراة ، أى يجب أن نعيش فى نظام اشتراكى وأن يتعلم الرجال والنساء منذ ولادتهم إلى وفاتهم، الاختلاط والتعاون والمساواة، وأن نطمئن على عيشنا فلا يكون هناك قلق يغمر شخصيتنا ويحملنا على الهرولة والخطف : هرولة وخطف فى المجتمع يؤديان إلى هرولة وخطف فى التعارف الجنسى .

فاذا تم هذا أى إذا تغيرت « الطبيعة » البشرية ، وهى فى صميمها طبيعة اجتماعية ، وإذا تساوى الرجال والنساء ، عمت الطمأنينة وزالت الرغبة فى التسلط. وعندئذ تهنأ الحياة الزوجية وترقى على أسس من التعاون والحب والثقافة ، فلا تكون غريزية كالحيوان ولا شقية بالوجدان الاجتماعى السيء الحاضر. وتخرج المرأة من انثويتها الضيقة إلى ميدان الإنسانية الواسع .

كيف نصادق زوجاتنا

الصداقة ضرورية لكل إنسان ، إذ أننا نجد من الصديق سلوى ومؤانسة وانحيازاً نحتاج اليها فى حالى الضيق والسعة على السواء . . . ونحن نتخير أصدقاءنا عادة بحيث يتفقون معنا فى الرأى ، أو يتكافأون معنا فى الثقافة وأسلوب العيش . . وبعيد أن نصادق من نختلف معه فى كل هذه الأشياء

وكثيراً ما نتجنب حتى أقرباءنا بل وإخوتنا إذا وجدنا أننا لسنا وإياهم على وفاق فى أسلوب العيش أو الرأى ، أو العقيدة ، أو الثقافة ، أو الدرجة الاجتماعية

وفى مصر حيث لايزال الاتجاه العام يميل إلى تمييز الشاب على الفتاة فى التعليم ، نجد أن التكافؤ الثقافى بين الزوجين معدوم وأن الهوة بينهما كبيرة ، ومن ثم تكاد تنقطع بينهما أسباب الصداقة .

والرجل قد يعيش مع زوجته نحو أربعين أو خمسين سنة . وليس هذا العيش سهلا إذا لم تكن هناك صداقة تربطهما . ولذلك غالباً ما يتجه الرجل إلى خارج بيته حيث الأصدقاء من الرجال يقاعدهم فى القهوة ، أو فى النادى ، ويجد فيهم بديلا من الزوجة .

وفى أوربا تتعلم المرأة كالرجل تقريباً ، ولذلك يتكافأ الزوجان فى الثقافة ، فتصبح المرأة وإذا بها ليست زوجة فحسب ، بل صديقة لزوجها أيضا . يشتاق كل منهما إلى رؤية الآخر ، ومجالسته ، ومحادثته ، ويخرجان معاً ، ويقرآن الكتب التى يشتريها أحدهما معاً ، ويناقشان موضوعاتها . .

وإلى أن نصل إلى هذه الحال ، أى إلى أن نسوى بين تعليم الشاب والفتاة ، بلا تفرقة أو تمييز ، نحتاج ، نحن الأزواج ، أو المرشحين للزواج ، إلى أن نرفع زوجاتنا إلى مصافنا فى الراى والمعرفة والثقافة ، وليس هذا بالأمر الشاق كما يتوهم القارىء

والمهندس مثلا لا يحتاج إلى تعليم زوجته دقائق الهندسة الآلية أو الكيماوية . . والمحامى ليس بحاجة إلى أن يشرح لزوجته فقه القانون الرومانى . . والطبيب لا يحتاج إلى أن يدرس لها الفسيولوجية . . ليس هذا ضروريا وإن كنا قد رأينا أزواجا استطاعوا أن يشركوا زوجاتهم حتى فى هذه الأشياء الفنية ! .

ولسنا فى صداقتنا لزوجاتنا ، نحتاج إلى كل هذا وإنما نحتاج إلى أن نتحدث إليهن عن شئوننا المهنية ، حتى نثير استطلاعهن ونبعث فيهن الشوق إلى التعرف على أعمالنا .

وأولى من هذا وأسهل أن نجعل الجريدة ، والمجلة ، والكتاب

بعض أثاث البيت ، نشتريها فى عناية ، ونختار منها الأحسن والأنفع ونقرأها مع زوجاتنا ونناقش مافيها من شؤون سياسية أو اجتماعية . وبهذه الوسيله يتقارب الزوجان تقاربا ذهنيا ، ويتفقان على مبدأ فى الرأى والعقيدة

وقد يقول القارىء إن الحديث عن السياسة أو قراءة الجريدة ليس كل شىء فى التكافؤ الثقافى الذى يؤدى الى الصداقة. ولكن هل هذا القول صحيح ؟

أليست السياسة كل شىء فى أيامنا هذه ؟ أليست هى التى تسيطر على حديثنا وتثير اهتمامنا ؟

والكلام فى السياسة هو فى عصرنا هذا حديث فى العلوم ، والاجتماع ، والاقتصاد معاً . . فالقنبله الذرية والغلاء والاستعمار والانقسام فى الهند واحراق المحاصيل فى أمريكا وأثمان البترول والطيران واضراب العمال ، كل هذا وغيره قد أصبح من صميم السياسة

ومتى شرعت الزوجة التى لم تلق عناية كبيرة قبل الزواج بتعليمها ، فى قراءة الجريدة مع زوجها ، ووجدت منه المفسر والموضح الذى يستخلص لها المغزى ، فلن تمضى سنوات حتى حتى تكون على تكافؤ يكاد يكون تاما مع زوجها ، نورا وعرفانا ورأياً واطلاعا . وعندئذ تسعد هى بصداقته كما يسعد هو بصداقتها

أعرف رجلين يختلفان فى المهنة وأسلوب العيش تزوجا أختين على قدر متساو من التعليم. وهو تعليم ابتدائى قليل النفع سريع الزوال . ولكن أحد الزوجين جعل زوجته شريكته فى المجلة والجريدة . والآخر لم يبال هذا الاشتراك . وقد مضت عليهما إلى الآن نحو ١٥ سنة ، فماذا كانت النتيجة ؟ الأولى تقرأ وتناقش وهى صديقة زوجها ، عندما يقعد اليها يجد أن الحديث يرتفع من القيل والقال إلى موقف ترومان ووالاس ، واتجاه الوفد فى المعاهدة، وموقف روسيا والقنبله الذرية، والفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين الخ .

أما الأخرى فقد نسيت القراءة تماما ، ولذلك هجرها زوجها إلى القهوة ، وأخذ يعيب عليها جهلها !

ولا شك أن المدارس فى المستقبل ، ستغنينا عن هذا الجهد عند ما تعنى برفع مستوى الزوجة إلى مستوى الزوج بمحو الفروق التعليمية بين الجنسين . ولكنا الآن فى حاجة لأن يعنى كل زوج منا بزوجته حتى يعلمها ، ويثير اهتمامها ، ويوقظ ذهنها .. وخير الوسائل الموقتة لذلك هى الجريدة والمجلة . . . والمجهود الذى يبذله الزوج فى هذا السبيل ليس مجهوداً ضائعا ، وحسبه أنه بذلك يكسب صداقة زوجته ، تلك الصداقة التى تفسح له آفاق السعادة الزوجية والهناء العائلى .

مجتمعنا الانفصالى الحاضر

نحن اقل مسرات ومباهج من الأوربيين لأن هؤلاء يلقون الدنيا فى صراحة أكثر منا . ونحن بالمقارنة إليهم نوارب ونداری كأننا ملوثون بتهمة نخشى أن تفتضح . يعيش رجالنا منفصلين من النساء لهم مجتمعهم الخاص ومسراتهم الخاصة فاذا كانت هناك علاقة بين الجنسين فهى ليست علاقة الأنسة والرفقة والزمالة الاجتماعية كما هى الحال فى الامم المتمدنة . وإنما هى العلاقة البيولوجية البدائية التى قد ترتقى أحياناً إلى انسة اجتماعية محدودة بالبيت . ولكن ما أصغرها وأضيقها ..

كل هذا لأننا نعيش فى مجتمع انفصالى الرجال ينفصلون من النساء .

والآثار التى يخلفها هذا الانفصال لا تقدر . فان الزمالة الزوجية التى تعد شرطاً ضرورياً للحياة السعيدة بين الزوجين ليست من المعجزات التى تباغتهما منذ العرس . لأن هذه الزمالة تحتاج إلى مرانة قد حرم منها شبابنا وفتياتنا لأننا حرمنا الاختلاط بينهما قبل الزواج . فأصبح كل منها منكفئاً على نفسه له عقلية خاصة وأحساسات نفسية خاصة كأنه مخلوق من كوكب آخر .

ولذلك يلتقيان بعد الزواج وهما غريبان يحتاج كل منهما إلى مجهود جديد للتوفيق فى الحياة المشتركه الجديدة .

والأوربيون يختلطون . يتعلمون وهم صبيان فى مدرسة واحدة . واحياناً يتعلمون معاً أيضا فى المدارس الثانوية . أما الجامعات فالتعليم على الدوام مشترك لا ينفصل فيه جنس من آخر . وهذا إلى الاختلاط بالضيافه التى لا تنقطع . ولذلك ينشأ الشبان والفتيات على دراية ومعرفه فاذا دخلوا فى بيت الزوجية كان دخولهم على نور وهدى وليس بمثابة الكشف عن أرض مجهولة كما هى الحالة الأسيفة عندنا .

ومنع الاختلاط بين الشبان والفتيات يعقب أثاراً من الامراض النفسية يعرفها الدارسون لهذا الموضوع . لأن هذا الفصل يجنح بالشاب أيام المراهقة إلى الاستسلام للخيال الذى لا تزده ولا تحده حقائق الاختلاط ولمس الواقع . فهو ينتقل من خيال إلى خيال ، ويشطح ويتطوح إلى أن يجد نفسه يوما وقد بعد إلى منأى تخصب فيه الشذوذات الجنسية التى يشق عليه . وأحياناً يستحيل ، أن يتخلص منها حتى بعد الزواج .

ونحن الرجال نحتاج على الدوام إلى الاختلاط بالجنس الآخر منذ أن نولد إلى إن نموت . لأن أقل ما يقال فى تبرير

هذا الاختلاط أنه هو الوضع الطبيعى الذى يجب الا يناقضه وضع اجتماعى . والشاب المختلط ، زيادة على أن غرائزه تبقى سليمه بعيدة عن الشذوذات ، يرقى شخصيته بالاختلاط بالجنس الآخر إذ هو يعنى بلباسه ولغته وصحته لأنه يحب أن يبدو بأحسن ما يستطيع حتى يجلب الاعجاب والرقة من الجنس الآخر . بل هو يرقى ذهنه ويربى حواسه لهذا الغرض أيضاً . ونحن نستطيع بالفراسه السيكلوجية أن نعرف الشاب المنفصل الذى لم ترتق نفسه وحواسه وذهنه بالاختلاط الجنسى .

وأول ما نجد فيه اهمالا فى هندامه إذ هو لا ينتظر اعجاباً ولا يتكلف عناية لجلب هذا الاعجاب من الفتاة . وهو يؤمن بالشهوة لا الحب . لأنه لم يسامر قط فتاة ولم يعرف قط أن للفتيات ميزات روحية ونفسية وثقافية وذوقية وأنهن يمتزن أيضاً بالشجاعة والتضحية والشرف .

ومثل هذه الحال التعسة تكون أيضاً عند الفتاة المنفصلة مع الاختلاف الذى تقتضيه ظروفها . بل هى أتعس من الشاب لأن حبسة البيت أسوأ أثراً هنا . والشاب مع انفصاله لا يحبس فى بيته . ولذلك تفقد الفتاة حيويتها ويستولى عليها جمود ينقص أن لم يلغ جاذبيتها . مع أن مواهبها الطبيعية فى الجمال قد تكون

كبيره جداً . ثم تسودها عقلية المنع والانكفاف. لأن الأحجام المادى يتشعع من بؤرته فى البيت إلى الوان من الأحجام الذهنى والنفسى، فيجب ألا تنظرى ويجب ألا تقرئى ويجب ألا تعرفى، الخ.

وقد أكون قد بالغت فى وصف المساوىء التى تعود من الانفصال بين الجنسين لأن الحدود والسدود قد تحطمت إلى حد ما . ولكن يجب أن نسلم أنها مع الأسف لاتزال قائمة فى كثير من أوساطنا . وهى أحياناً ، مع تحطمها فى الواقع المادى، لاتزال قائمة فى بعض الأذهان والنفوس .

يجب أن نعد الاختلاط جزءا من تربيتنا العامة وأن ندعو إلى التعليم المختلط فى المدارس الابتدائية وإلى تشجيع الضيافة الراقية بل أيضاً إلى غشيان المطاعم والقهوات العامة مختلطين .

وعندما ينتقل مجتمعنا من حال الانفصال إلى حال الاختلاط سوف نحس أننا أمة متمدنة . وسوف يربينا الاختلاط ويحدث بيننا زمالة واحتراما ، ثم يؤدى إلى الحب . أجل هذا الحب المكشوف الصريح الشريف الذى لايحتاج إلى اختلاس النظر من خلف الأبواب والأستار .

الحياة الفنية للمرأة

كل ماقلناه عن الرجل فى الفصول السابقة ينطبق أيضا على المرأة وقد نبهنا عن ذلك فى كلامنا عن العائلة والمجتمع . ولكننا نحتاج مع ذلك أن نعالج الحياة الفنية للزوجة لأننا فى مصر قد ورثنا من التقاليد أخطاء كثيرة ألغت المرأة من مجتمعنا وغيبتها عن وجداننا . وقد كوفحت هذه التقاليد بتعميم حرية المرأة ، وانتشار المدارس إلى حد بعيد . ولكن لايزال لهذه التقاليد رواسب إذا لم ترتفع إلى وجداننا الذهنى فانها لاتزال تصبغ عواطفنا وتؤثر فى حياة المرأة

والحياة الفنية للمرأة تقتضى أن تعمل كالرجل . فتحترف حرفة ما ترفعها من الأنثوية الى الإنسانية وتربيها طوال العمر وتحملها على النمو والاينا ع النفسى ، كما تقتضيها الاتصال بالرجال . ونحن الرجال لانستطيع أن نتخيل أنفسنا منفصلين عن المجتمع ومحرومين من الحرفة لأننا نعرف أننا فى هذه الحال نسقط سقوط اليأس الذى لانهض منه . ذلك لأن الحرفة والمجتمع يربياننا وهما من أكبر الدوافع لارتقائنا الذهنى والنفسى بل والجسمى .

وقليـل من المقارنة بين امرأة لزمت البيت وحرمت من المجتمع ، وأخرى عملت فى حرفة واختلطت بالمجتمع ، مدة عشر سنوات مثلا ، يوضح لنا مقدار الفرق العظيم بينهما . فإن قيم الحيـــاة الى حد عظيم قد ألغيت عند الأولى بينما هى قد روعيت عند الثانية . ولذلك بينما تركد الأولى وتسمن وتترهل لقلة حركتها ، وتضيق آفاقها الذهنية والنفسية ، تنشط الثانية فى عملها وتستبقى نحافتها وعضليتها وتتسع آفاقها الذهنية والنفسية

وليس لأحد منا أن يؤمل فى القريب أن تستوى المرأة بالرجل فانها لم تصل الى هذه الحـال فى أوربا وأمريكا الى الآن . ومع أن قوانين الدول هناك تنص على المسـاواة فان قواعد المجتمع تأبى هذه المساواة . وفى مصر لاتزال الحرفة مكروهة عندالمرأة وكثيراً ما تخرج منها عندما تلوح لها الفرصة كما نرى فى بعض المعلمات مثلا . ولذلك فاننا عندما نعـالج مركز المرأة فى مصر نتجه الى البيت كأنه كل شىء . وهو ، فى وضعها الاجتماعى القائم عنـدنا ، يكاد يكون كذلك . وانما الذى ننسـاه هو أن البيت للمرأة وليست المرأة للبيت ، أى يجب أن يعد البيت لراحتهـا ورقيها وسلامتها ولا يضحى بها من أجل الطبخ والكنس والغسل .

والبيت فى مصر كثير الأعباء مرهق التكاليف كثيرا مايشبه الورشة فى إرهاقه وتعدد واجباته الصغيرة . كما لايزال المطبخ والمغسل ورشتين صغيرتين لاينقطع العمل منهما طوال النهار وبعضا من الليل . وربة البيت مضطرة إلى الاشراف عليهما إذا لم تباشر بنفسها العمل فيهما . وهى فى كلتا الحالتين تقتطع من وقتها وفراغها ما كان أحرى أن تنفقه فى ترقية شخصيتها بالدراسة والاختلاط والانتفاع المثمر بالفراغ

وتستطيع المرأة المصرية أن تنتفع باختبارات المرأة الأوربية هنا فان هذه تخص يوما أو يومين للخروج مع زوجها وأولادها والغداء أو العشاء فى المطاعم . كما أنها تخص يوما أو يومين فى الأسبوع لتناول الأطعمة المعلبة التى تستغنى بها عن الطبخ ا والخروج الى المطاعم يتيح الاختلاط كما أن اقتناء العلب العديدة الوفيرة للأطعمة يتيح الفراغ الذى تستخدمه ربة البيت فى تثقيف ذهنها أو فى أى استمتاع آخر

ولذلك ارتقت بعض المطاعم فىأوربا حتى ليصح أن يقال أنها ليست لتزويد زائريها بالطعام فقط . اذ لايخلو مطعم منها من جوقة موسيقية كما أنها فى ترتيب موائدها واختيار آنيتها وتزيين جدرانها والتأنق فى الطبخ تبلغ القمة . وتناول الطعام

فيها ليس لتوخى الشبع المعدى ولكنه قبل ذلك متعة فنية أنيقة. وكثيراً ما تعود الزوجة من المطعم وقد درست درساً نافعاً فى طبخ أحد الألوان أو ترتيب المائدة ، وهذا الى فوائد أخرى فى الاختلاط بالأصدقاء أو الاستماع للموسيقى

كما أن الأطعمة المعلبة تتنوع وتتعدد إلى حد لا نتخيله فى مصر حيث نكاد نقتصر من هذه الأطعمة على السردين . فانهم فى أوربا وأمريكا يعلبون جميع اللحوم والخضراوات والأسماك فتستطيع ربة البيت أن تحضر طعام اليوم كله دون أن تحتاج إلى طبخ . بل أن كيزان الذرة نفسها توضع فى علب . وزيادة على هذا تباع الفراخ منظفة فلا تحتاج الى عناء الذبح والتنظيف فى البيوت كما هى الحال عندنا حيث نشترى الفراخ حية ونذبحها ونحيل المطبخ بريشها وأحشائها إلى مزبلة

وإذا شئنا الترفيه عن المرأة المصرية فى البيت حتى تجد الفراغ الذى تحتاج اليه كى ترقى شخصيتها وتنير ذهنها وتوسع آفاقها ، فاننا يجب أن نعاونها على ذلك بغشيان المطاعم والاعتماد على الأطعمة المعلبة واحالة الغسل إلى المغاسل كما نحيل الكى الى المكاوى . وبهذا تخف أعباء البيت التى ترهق فى الوقت الحاضر آلافا من نساء الطبقة المتوسطة

وبالطبع لاننسى هنا كثرة الأولاد أى الإسراف فى التناسل الذى يرهق الأمهات ويستنفد كل مجهودهن بحيث لا يبقى لهن من القوة ما يتوفرن به على عمل آخر . وقد توافرت وسائل الضبط للتناسل كما أصبحت مأمونة . ولا عذر للزوجين فى اهمالها لأن هذا الاهمال سينعكس أثره فى الزوجين اللذين سوف تصدمهما حقائق الحاجات الاقتصادية فيعجزان عن توفير الصحة والتربية للأولاد بل أيضا لهما . لأنهما هما ايضا فى حاجة الى صحة وتربية

وعلى ذلك نقول أن الحياة الفنية للمرأة ، اذا لم تكن تعمل مستقلة ،أى طبيبة أو معلمة أو ممرضة أو تاجرة، تحتاج الى الاقتصاد فى عمل البيت من ناحية ، وفى عدد الأولاد ، من ناحية أخرى

العادات

نحن نعيش بالعادات . عادات العمل وعادات الفكر . ولكل منا عاداته الخاصـــة ، الحسنة أم السيئة ، فى المشى والحديث والأكل والتفكير أى أنه يتخذ أسلوبا أو أساليب فى كل ما يعمل . وهذه الأساليب تلصق به طوال عمره .

وقد كان ولنجتون يقول عن العادة أنها ليست طبيعة ثانية كما هو المثل الجارى إذ هى تزيد على الطبيعة عشر مرات .

وعادات التفكير لا تقل خطورة عن عادات العمل . فان الناس يختلفون تفاؤلا أو تشاؤما بالدنيا وصروفها لعادات فكرية تعودوها ولا يطيقون التخلص منها . وكلنا يعرف ذلك الشاب الذى يتسم بالتهكم أو المزاح فيثقل علينا باستصغاره لكل ما نفعل أو يملأنا طربا بنكاته ونوادره . وهناك بالطبع ذلك الآخر الذى تعود الوقار فيكاد يجهل الضحك . ثم هناك آخرون قد تعودوا الانتقاد أو حتى المنافرة فهم على الدوام فى موقف المعارضة والمناقضة . ثم هناك ذلك الذى تعود المخاصمة فلا نعرف كيف نحادثه لأننا نتوقع منه كل وقت لوما لنا فى غير ما نستحق أن نلام عليه .

وجميع هذه الأخلاق عادات ذهنية يتعودهـا أحدنا ، فى الغالب ، أيام طفولته فتثبت ولا تتركه طوال حياته .

ولـكن كما تثبت العادة السيئة كذلك تثبت العادة الحسنة . ولذلك يحتاج كل منا كى يعيش فى اقتصاد ذهنى وجسمى ، وفى ملاءمـة بينه وبين الوسـط الاجتماعى أو المـادى ، أن يتعود العادات الحسنة أى عادات الأكل الصحى والدراسـة الدائمـة والعمل الجدى والتسلية المرقية والمعاملة او المعاشرة الاجتماعية التى تنأى عن الشر .

وميزة العادات ، زيادة على انها تثبت وتلصق بناءانها تجعل العسير من الأعمـال سهلا محبباً إلى النفس . وصحيح ان عاداتنا العامـة التى تحرك غرائزنا وتنشط عقولنا تأتينا عفواً بعضهـا ايام الطفولة وبعضهـا بعـد ذلك . ولـكن ليس معنى هـذا اننا نعجز عن تـكوين العادات الحسنة اى نـكونها بارادتنا وعلى وجدان تام بمنفعتها وضرورتها لنا .

والهدف الذى نقصد اليه من تـكوين عادة ، ان نقتصد فى مجهودنا حتى نستطيع ان نؤدى مقداراً من العمل أكبر مما كنا نؤديه قبل تـكون العادة ونستهلك من قوتنا أقل مما كنا نستهلك .

والرجل الحـكيم لا يترك نفسـه يعيش عفواً كأنه مسوق

بالظروف والصروف . إذ يجب ان يعيش قصداً باهدافه وعلى تقدير لمواهبه وكفاءته واستغلال لها بما يجعل حياته مجدية ان لم تكن سعيدة . وهو محتاج ، لهذا السبب ، إلى ان يتعود العادات الحسنة التى تعاون على رقيه وتطوره .

واول ما نحتاج إليه فى تكوين عادة ما ان تقتنع بفائدتها وضرورتها لنا . وهذا الاقتناع ليس محض الميل والاتجاه . إذ يجب ان نعين الفوائد التى تعود علينا كتابة مع التفصيل الذى ربما يحتاج إلى مراجعة وتفكير وتنقيح . اى اننا يجب ان نحس اننا لم نأخذ بهذه العادة إلا بعد حكم قد وصلنا اليه عن وجدان ويقظة . واننا بنينا هذا الحكم على اسباب قوية قد اقتضاها « تصميم » حياتنا .

فاذا اقتنعنا بفائدة العادة شرعنا فيها . وحسبنا من هذا الشروع ان نعمد الى يومنا ، اى هذا اليوم ، الى ممارسة العادة . ثم نجدد العزم كل يوم على هذه الممارسة الى ان يؤدى التكرار الى ثباتها . ولا بد من المثابرة بحيث لا يفوتنا يوم إلا ونحن فى ممارسة لها .

وواضح اننا عند ما نختار عادة يجب ان تكون فى مستطاعنا حتى لا تتجاوز طاقتنا . ثم يؤدى عجزنا الى تركها .

مثـال ذلك : نفرض ان احدنا قد بلغ الثلاثين وهو يجد انه مقصر فى الدراسة وان زملاءه قد سبقوه فصار لهم مقـام وحققوا كسباً ونالوا امانى لم يحصل هو عليها لتقصيره فى الدراسة . وأنه ينوى ان يتعود عادة الدراسة .

فأول ما يعمد اليه ان يعين هذه الدراسة ويوضح الأسباب التى تدعوه اليهـا . ويوضحها كتابة مع التفصيل والمراجعـة حتى يقتنع بضرورتها .

ثم يبدأ اليوم ، هذا اليوم ، فى هذه الدراسة .

ثم يثابر . والمثابرة هنا تعنى انه لا ينقطع .

وهو محتاج الى تشجيع . وقد لا يجد هذا التشجيع من اخوانه . وعليه عندئذ ان يسجل نجاحه يوما بعد يوم لأن هذا التسجيل يوضح له الخطوات التى خطاها نحو تحقيق اهدافه . فهو يزيده حماسة ونشاطاً واقبالا .

وقد ذكرنا الدراسـة باعتبارها إحدى العادات التى يجب على الشاب ان يتعودها . ولـكن العادات الحسنة كثيرة . لأننا محتاجون الى عادات الرياضة البدنية ، والمحادثة بكلمات كريمة ، والاعتدال فى الطعام مع التأنق الذى يقتضيه التمدن ، وامثال ذلك مما قد تصغر قيمته عند ما نتأمله عملا منفرداً ولـكن

تكبر قيمته عند ما نتأمله عادة متكررة ، إذ قد يسهل علينا ان نتحدث إلى احد الناس فى لغة كريمة وكلمات انيقة إذا قصدنا إلى ذلك وتكلفنا . ولكن لا يسهل ان نفعل ذلك مع جميع الناس على سبيل العادة عفواً وسماحة . وكثير من النجاح يعزى احياناً إلى مثل هذه العادات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التخلص من العادة السيئة

العادة كالنار إما خادمة حسنة وإما سيدة مؤذية ، وكثيراً ما تتسلط علينا عادات تملكنا وتستبد بنا فنؤديها خاضعين ونحن على مضض من إلحاحها وعلى وجدان بما تبدده من قوانا وحيويتنا .

وكثير من عاداتنا السيئة يعود إلى إهمال أبوينا فى تربيتنا حين عودونا التدلل وكراهة الاستقلال أو الخوف والاحجام أو حتى كراهة بعض الأطعمة . فانى أعرف رجلا بلغ الستين ولم يذق الجبن فى حياته . وكراهته لهذا البروتين الثمين ترجع الى أيام طفولته حين اهمل ابواه تعويده تناول هذا الغذاء . وقد خسر كثيرا فى صحته وماله بهذا الحرمان . كما أن هناك ناسا قد بلغوا الأربعين اوالخمسين إذا رأيناهم يأكلون اشمأززنا من الأسلوب الذى يتبعونه فى تناول الطعام ومضغه .

واتجاهاتنا وميولنا هى عادات كامنة توجهنا نحو الجد أو المزاح . ونحو التشاؤم أو التفاؤل . ونحو الأقدام أوالاحجام وهى عادات نفسية لاتختلف من عاداتنا الجسمية فى غسل الوجه أو السير فى الشارع أو التحية لصديق . وهى ، أى هذه العادات

النفسية ، تعين سلوكنا وتصرفنا .

وبالطبع هناك عادات خطرة كالتدخين أو الشراب أوحتى المخدرات والشهوات الشاذة . ونحن لانعالج هنا هذه العادات إذ هى تحتاج الى تحليل نفسى كى نصل الى الأزمات والتوترات التى أحدثت الالتجاء الى هذه العادات فرارا من الواقع المؤلم.

وقد يكون التدخين أخفها فلا يحتاج الى تحليل . لأن الأغلب أن الشاب يقع فى هذه العادة لرغبة ساذجة فى تأكيد رجولته . ولكن أدمان التدخين يدل على توتر نفسى يحتاج الى التحليل .

وفى ابطال العادة ،كما فى تكوينها ، نحتاج قبل كل شيء الى الاقتناع . وهذا الاقتناع يحتاج الى توضيح العناصر كما لو كنا ندافع عن متهم ونوضح عناصر البراءة . وذلك كى ينبنى الاقتناع على أسباب وجيهة . فاذا تم لنا ذلك فلنشرع فى التنفيذ ونقنع منه بيوم واحد .

فالمدخن الذى ينوى ابطال التدخين يحتاج الى ايضاح الأسباب ، كتابة ، لهذا الابطال . ثم عليه ان يقرر العزم على الامتناع يوما واحدا لا اكثر . فاذا تم له هذا اليوم فعليه أن يقرر هذا اليوم وعليه ان يسجل هذا الانتصار ، كتابة ايضاً .

ثم يجدد العزم على يوم آخر . وكلما مضى يوم ضعفت العادة وتراخت قبضتها على خناقنا .

ويجب على المدخن ايضا ان يستعين بالوسط . اى يغير الشارع الذى تعود أن يشترى منه . او لا يأخذ مؤونته اذا كان على قصد الابتعاد عنه أو نحو ذلك . ثم يجب المثابرة فلا يخرم يوماً يعود فيه الى عادته لأن هذا اليوم وحده يفسد جميع ايام الحرمان السابقة او يلغيها .

واذا وجد الشاب انه مع ذلك عاجز عن ابطال العادة السيئة فعليه بالتحليل النفسى حتى يصل الى الأصول الثابتة فى كامنته « عقله الكامن » فيكشفها وينفضها فى الهواء . وعندئذ يسهل الابطال .

ولكن العادة تحدث فى النفس شهوة . وابطالها كظم قد لا يطاق. وكثيراً ما رأينا آثار هذا الكظم فى مدمن الخمر حين يتأخر عن ميعاد شرابه . فانه يقلق فى مكانه . وقد يرتعش أو يعرق أو يغضب وهذا لأنه كظم الشهوة للشراب ساعة أوأقل أو أكثر فقط . فكيف بالابطال التام ؟

يجب على المدمن أن يأخذ بعادة أخرى قريبة او مناسبة للعادة السابقة التى أبطلها حتى تجد شهوته المكظومة المنفس

والمخرج . كالقهوة بدل التدخين أو الألعاب الرياضية بدلا من القمار أو الطعام قبل ميعاد الشراب حتى تمتلىء المعدة فلا يساغ الشراب . وإذا لم تنجع هذه الوسائل للاقلاع عن عادة سيئة فيجب ، كما قلنا ، الالتجاء إلى التحليل النفسى . وإذا لم يكن هذا متيسرا فلا بأس من الاعتماد على ما يسمى : « الانعكاس المعدول » أى إيجاد مركب نفسى سىء كأن نحقن شريب الخمر بحقنة مقيئه قبل الشراب ثم نأذن له بكل ما يهوى من شراب كما وكيفا حتى إذا جرع كاسين أو ثلاثة الفى نفسه فى غثيان وقىء . فاذا صحا صار لا يشتهى الخمر إلا وفى نفسه هذا الجزع من الغثيان فيكره الخمر . وهذا هو ما تفعله الام مع طفلها الرضيع حين تحتاج إلى فطامه فانها تطلى الحلمة بسائل مر فيكره الطفل الرضاع لأنه يقرن المرارة إلى الحلمة .

ولكن المرارة للحلمة ، والغثيان وقت الشراب ، كلاهما عمل سلبى أى أنه يكف ويزجر . والحاجة تدعو هنا إلى عمل إيجابى يغرى ويجذب . وهو عند الأم تقديم طعام سائغ للطفل . وكذلك يجب أن نقدم شيئا للسكير له قيمة نفسية ترفيهية تقوم مقام الخمر . ولكل إنسان ظروفه التى تعين العلاج . فقد يعالج أحدهم بالرفقة المنعشة مع أحد الأصدقاء . وقد يعالج آخر باهتمامات لذيذة تملك نشاطه وتوجهه .

وحياتنا كلها سلسلة من العادات الجسمية والذهنية والنفسية فاذا قصدنا إلى أن نجعل حياتنا فنا جميلا فاننا نحتاج إلى تعود العادات التي تؤدي إلى الاقتصاد في مجهوداتنا. كما نحتاج إلى عادات التأنق ، نتأنق في لباسنا وطعامنا وتصرفنا ، حتى نجعل الكيف يأخذ مكان الكم ؛ فنطلب الكمال فوق الضرورة ونقصد إلى الجمال في كل ما نتوخى من وسائل أوغايات .

عادة القـــــراءة

تحدثنا فى بعض الفصول السابقة عن القيمة العظمى لعادة القـــراءة . ولكنا مع ذلك نحتاج إلى التوسع فى ايضاح هذه القيمة . وهذا الكتاب الذى نتوخى فيه جعل الحياة فنية يجب أن يحوى فصلا عن القراءة . لأن القراءة وحدها تجعل الحياة فنية فى الكثير من معانيها إذ هى ترفع القارىء من الاعتبارات المحلية ومن الضروريات المعيشية إلى قيم بشرية سامية وإلى كماليات وتأنقات ذهنية لا يحصل عليها الأمى أو ذلك القارىء الذى يحيل نفسه إلى أمى لأنه يكره القراءة .

وفى أيامنا يعد توافر الكتب والمجلات والجرائد من أعظم انتصارات الحضارة العصرية . لأنه قد جعلنا ، بالقراءة المثابرة ، على وجدان دائم بعصرنا ودنيانا فاتسعت آفاقنا الفكرية والعاطفية وحفلت حياة القارئين باهتمامات جديدة ومتجددة لم يكن آباؤنا يعرفون شيئاً منها . فاذا لم تكن حياتنا أطول من حياتهم فانها على الأقل بالقراءة ، أعرض وأعمق منها .

وواضح أننا نقصد هنا القراءة المنيرة المنبهة لا القراءة المظلمة المخدرة . فان هناك قراء وقارئات يشترون المجلة كما يشترون اللب أو اللبان للتسلية وقتل الوقت كما أن هناك مؤلفين قد

زودوا السوق « الأدبية » بهذه المخـــدرات التى تبنج العقل وتلغى الوجدان .

ولكن القارىء الذى يعنى بحياته يأبى التخدير لأنه لايحب أن ينسى أنه حى . وهو يقرأ كى يزيد حياته حيوية وليس كى ينام ويتخدر . وهو يزداد بالقراءة سرورا واحساساً بالنمو . وقراءته دراسة مقصودة مرتبة على مراحل حياته كأنها البرنامج للنمو والتطور . والقارىء الذى يحس بعد سنوات من دراسته أنه لم يتطور يحتاج إلى المراجعة والتساؤل. لأن أغلب الظن أنه أساء فى أختيار الكتب وانغمس فى دراسات جامدة لا تبعثه على الرقى أو النمو أو التطور .

والقراءة الجزافية سيئة وهى كالأكل الجزافى . لأننا نحتاج فى الحيـاة الفنية إلى التنظيم والترتيب ووضع البرامج كى تفتح الميادين الجديدة . فالرجل المستنير لا يرضى لنفسه هذه الأيام أن يعيش على هذا الكوكـب دون أن يحاول الوقوف على الطاقة الذرية، كما لا يرضى لنفسه أن يجهل نظرية التطور ،التطور البيولوجى والتطور الاجتماعى .

وهناك عشرات من الموضوعات الحيوية التى لا يجوز لمستنير أن يهملها . وهى تستغرق الحياة كلها . بل أن المتعودين للدراسة

يجدون أنهم فى شكوى دائمة من قلة الوقت . ولذلك لا يعرفون السأم واهتماماتهم متعددة متجددة .

والحياة الفنية تتجه نحو العناية بالفنون الجميلة قبل كل شيء أى بالأدب والشعر والموسيقا والرسم وما إلى ذلك . لأن هذه الفنون تزيدنا تأنقاً فنتوخى الجمال فى تصرفنا كما نتوخاه فى بيئتنا ، ولكن التعمق يقتضى ألا يقف أحدنا من الدراسة موقف القارىء المطالع القانع بزيادة معارفه . إذ يجب أيضاً أن يشترك ايجابياً فى ثقافة معينة تكون عنده كالبؤرة الأصلية التى تتشعع إلى ثقافات فرعية عديدة . وهو يحسن إذا مارس الكتابة عما يقرأ . يشرع أولا بمراسلة بعض المجلات ثم يرتقى إلى كتابة المقالات ثم إلى التأليف إذا استطاع ذلك . ولكن يجب على كل حال أن يحاول الكتابة التى تزيده ارتباطا بالثقافة وتحمله على زيادة البحث والاستقصاء لما يدرس .

وثم اعتبار آخر فى قيمة القراءة أو الدراسة للحياة الفنية هى أنها أعظم الوسائل للاحتفاظ بشباب الذهن فى الشيخوخة . فالشاب الذى تعود قراءة الجريدة والكتاب أيام شبابه ثم واصل هذه العادة فى كهولته وشيخوخته يحتفظ بالكلمات ماثلة حية فى ذهنه حين تتبلد العواطف فلا تحرك الذهن إلى التفكير

والاهتمام بل حين تأخذ خلايا المخ فى التدهور وتعجز الشرايين الدقيقة المتصلة عن تغذيتها وتنظيفها . فى هذه الحال يرافق الشيخوخة نسيان للكلمات يؤدى إلى تعطيل للتفكير . ولكن عادة القراءة كل يوم تجعل الكلمات ، كما قلنا ، ماثلة . ومتى مثلت الكلمات مثلت الأفكار . فيبقى الذهن شابا حيا وتعود الشيخوخة حافلة بالاهتمامات حتى ولو بلغنا التسعين أو المائة . ونرى هذا واضحا فى جميع الأدباء أو العلماء الذين لم ينقطعوا عن الدراسة فى شيخوختهم . إذ فى الوقت الذى نجد فيه غيرهم قد تبلد ذهنه وجمد ، أو حتى خرف ، نجد أنهم لايزالون يقرأون ويكتبون كما لو كانوا فى الشباب . وقليل منهم من يمتاز بشرايين طرية أو صحة عامة تختلف من سائر الناس . ولكن ميزتهم الوحيدة هى الميزة اللغوية إذ قد احتفظوا بالكلمات فاحتفظوا بالمعانى أيضا وبقيت الأفكار حية عندهم تحركهم الى النشاط والاهتمام

ولذلك تعد القراءة خير ما نهيء للشيخوخة . ويجب ألا يقل الاهتمام بها عن الاهتمام بالصحة الجسمية . بل ربما كانت هى أهم وأنجع لاستبقاء الحيوية عند المسنين . وعندنا من الأمثلة فى مصر ما يبرهن على صحة قولنا . فى هذا الوقت الذى أكتب فيه هذه الكلمات (١٩٤٦) يعيش عبد العزيز فهمى باشا فى

السادسة والسبعين وهو محطم الصحة الجسمية . ولكن ذهنه فى شباب عجيب لأنه لم ينقطع يوما عن القراءة الجدية . فالكلمات (أى الأفكار) ماثلة فى ذهنه تبعثه على اهتمامات ثقافية مختلفة. وقد زرته قبل شهرين فوجدته ينقل كتابا عن القانون الرومانى إلى اللغة العربية . وهو يقرأه فى حماسة ويراجعه فى نقد وتغيير

ولذلك نحن على حق حين نقول أن صحة الذهن للمسنين أهم من صحة الجسم . ومداومة القراءة اليومية هى خير ما يؤدى إلى صحة الذهن . ونستطيع أن نذكر عشرات من المسنين استبقوا بالقراءة شباب أذهانهم . ولكنا نحب أن نغير كلمة القراءة ، فنقول الدراسة . لأننا نقصد إلى الجد والترتيب ووضع البرامج للتوسع الذهنى . ولا نقصد إلى القراءة التى تقوم مقام أكل اللب أو مضغ اللبان .

والبيت المتمدن فى عصرنا هو البيت الذى يعرف أن أفخر ما فيه من أثاث إنما هو الكتب . لأنها غذاء نفوسنا وعقولنا التى هى أحق بالعناية من بطوننا . ومن عجب أن هناك من يعد نفسه متمتعاً بحياته لأنه يأكل أفخر الأطعمة ويلبس أجود الملابس ولا يدرى أن المتع البشرية السامية تتجاوز هذه الحاجات البيولوجية إلى الوقوف على ذلك التراث البشرى

العظيم من مؤلفات افلاطون إلى صلوات اخناتون إلى فلسفة بوذا إلى دراسة الكتب المقدسة إلى تواريخ الأديان وحياة القديسين إلى حقائق العلوم وتطورات الأمم وغيرذلك . وأى شيء من أثاث المنازل عند المليونيين يعادل الذهن المؤثث بالاختبارات والنظريات والأفكار التى تبسط تاريخ المستقبل فضلا عن تاريخ الماضى ؟

والقيم البشرية تعد على الدوام فى المرتبة العليا بالمقارنة إلى القيم الاجتماعية . ولذلك لا يمكن أن يقارن الثراء والوجاهة والمال وترف المنزل والمعيشة بالذهن الثرى بالثقافة المتمرن على التفكير اليقظ بالوجدان العالمى . وذلك الشاب الذى يهمل تعود الدراسة ويبخل فى شراء الكتب والمجلات يؤثر عليها الرياش النفيسة أو اكتناز المال انما يبخس نفسه التى هى أولى من أى شيء آخر بالانفاق بل بالإسراف فى الانفاق .

البيت متحف

البيت من أخص الأشياء التى نملكها . فقد نقتنى أسهم الشركات أو مئات أو آلاف الجنيهات أو قد نشترى عزبة نستغلها ونعيش فى إحدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بالبيت. لأن له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضى فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ونجد فيه الراحة بعد كدّ النهار . كما اننا نطبع عليه شخصيتنا لأننا نتخير له الأثاث ونتأنق فى ترتيبه . ومن هنا هذا الحنين الذى نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع أو أشهر ولو كان هذا الاغتراب فى مصيف أو مشتى للراحة والاستجمام .

وعند بعض الناس يعد البيت مأوى أو مطعماً . ولذلك سرعان ما يتركونه إلى القهوة أو النادى أو الحانة حيث يجدون رفاهيتهم مع الاصدقاء أو فى لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا فى الغالب على حال سوية نفسية إذ هم يكظمون أشياء من علاقة زوجية سيئة الى قلق اقتصادى أو حرفى أونحو ذلك . ولفرارهم من البيت معنى رمزى يسهل تفسيره بالتحليل النفسى .

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » أى أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الأولى التى اقتضته . ولكن الإنسان فى طورنا الحضارى لا يقنع بالضرورات إذ هو قد سما إلى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت أكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحنا فى فصل سابق بأن يجنح الزوجان من وقت لآخر إلى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس إلى حيث تغسل بالأجر بدلا من احالة البيت إلى ورشة للغسل والبطخ طوال اليوم .

والوضع الاجتماعى القائم يجعل البيت المكان الطبيعى للمرأة. وليست الحال كذلك للرجل . ولكنا نبالغ فى تأكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قد خلقت للبيت . وليس العكس . وهذه المبالغة تنتهى بأن تجعل من البيت محبسا لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعى الذى يجب أن تدخل فى غماره وتتأثر به وتؤثر فيه . إذ هى قبل أن تكون « ربة بيت » ، انسان ، له مركزه الأكبر فى هذا الكون قبل مركزه الأصغر فى البيت.

وهناك فرق بين السرور والسعادة. الأول مادى بشأن المواد التى نقتنيها ونستمتع بها. والثانية فكرية بشأن الغايات والمثليات . ولكن ليس شك فى أن أقرب المسرات إلى السعادة هو الحياة

العائلية السامية . لأن البيت مادة وفكرة أى انه مأوى ومطعم ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية وتهدف إلى مثليات وتحقق أمانى كثيراً ما تحملنا على أسمى المجهودات .

والبيت السامى العصرى هو معهد حر يجد فيه أعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النيرة فى ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية واخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذى تتألف منه الامة . وكل عناية بالبيت انما هى فى النهاية عناية بالأخلاق الحسنة والسلوك البار . لأن الأطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والأوزان التى تلقوها فى البيت أيام طفولتهم .

ثم نحن نعيش فى البيت نحو سبعين سنة أى نعيش هذا القدر باجسامنا ولكننا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لأننا نحس نفسيا أن عائلتنا منا وان حياتنا مندغمة فى حياة افرادها ولذلك يمتد احساسنا للبيت إلى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا وهذا الاحساس يجعلنا نستهين بأى مجهود لترقية البيت .

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التى نلبسها على قد قامتنا فنعتنى بتفصيلها حتى تتخذ قسمات أعضائنا مع ما قد يكون بها من نقص . ولذلك نحن نؤثر البذلة التى فصلها الخياط على بذلة

جاهزة قد أخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد .

ويعد البيت لهذا السبب « مركب » نفسى والحنين اليه أحد مظاهره. وقد وجد البيت لذلك حرمة فى كثير من الأمم المتمدنة . فلا يجوز للدائن بيعه أو بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذى يحمله صاحبه . كما قد أجازت الأمم امتلاك المسكن الخاص فى المبنى العظيم الذى قد يحوى عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعاً لهذه الخصوصية التى تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لأنها لحظت أن للبيت أثرا تقويمياً للأخلاق . فكما أن المتزوج أقل جرائم واستهتارا من الأعزب لارتباط الأول بزوجته ، كذلك صاحب البيت أقوم أخلاقا ممن لا يملك بيتا لمثل هذا الارتباط .

وفن الحياة يقتضينا أن ننظر إلى الحياة نظرة فنية فنختار الأثاث فى دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف فى هذا الاختيار . لأن العرف بطبيعته طراز تعميمى . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والانفراد . والبيت يتسع للاتجاه الفنى حتى يعود بالتأنق متحفاً . وكثير من البيوت التى امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولكنها مع الأسف

متاحف قد أسىء فيها الاختيار . حيث أخذت الأبهة المطهمة مكان الفن الأنيق .

ولكن مع ذلك يجب أن نعترف أن الثراء فى أيامنا يستطيع أن يجذب إلى البيت أفخر الاثاث الذى يضع تصميمه ويرسم مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن يجعلو الفن سائداً فى بيوتهم فضلا عن إحالتها إلى متاحف .

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الأغنياء ولا يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا فى سائر الاثاث أو بالأحرى معظمه . ونقول فى « معظمه » لأن كثيرا من الاثاث الغالى فى الثمن لا نجد فيه غير الأبهة السخيفة مع القبح العظيم لأن الذين صنعوه قصدوا إلى كثرة التكاليف التى تبرز وفرة المال عند المقتنين لهذا الأثاث دون الالتفات إلى التأنق الفنى

نذكر من هذا سريرا رأيناه من النيكل له قبة كأنه أريكة جنكيزخان أو عرش تيمورلنك . وكل مافيه من ميزة أنه يباع ببضع مئات من الجنيهات .

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبيهات منجدة ومناضد ومرايا متعدده حتى ليدخل أحدنا منظرة الضيوف فيحس كأنه فى قاعة أثاث قد عرضت أشياؤها للمزاد .

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لا يتوافر لغير المتوسطين المدبرين الذين يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقا إذا جعلنا همنا فى جمع الأثاث ممتدا على سى العمر أى لا نشترى أثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف فى بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لأننا حين نفعل هذا نجمع الأثاث فى عجلة وفقاً لطراز العصر أو السنة . وقد يكون طرازا سيئا أملته نزوةوقتيةزائلة . وإنما يحسن أن نختار الأثاث قطعة بعد أخرى مع التغيير الذى يقتضيه ارتقاؤنا الفنى على مدى السنين .

ويجب أن نقتنى أجود الأثاث فلا نتسامح فى الجودة والقيمة الفنية . وهذا ميسور ما دمنا لا نزحم نفسنا ونرهق جيبنا فى شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك تجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الأثاث . ويعود البيت متحفاً جميلا يحوى أفخر ما أخرجته حضارة فرنسا والصين وألمانيا ومصر وغيرهن .

وإذا كان رب البيت أو ربته على شىء من ثقافة معينة استطاعت أن تجعل البيت متحفاً لثقافتها . وكثيرا ما يدخل أحدنا بيتاً لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التى اكتشفها من

أحجار أو محار أو معادن أو أحياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لا يتفق لكل منا .

ولكن الشيء المهم الذى نقصد اليه أن يجد البيت منا عناية فنية فى تأثيثه . وأن ننظر اليه كأنه متحف عائلى يجمع طرف الجدود والاحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة بل فكرة .

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية يحس بها أعضاؤه فيما يشبه المؤامرة. ذلك أن لهم أسراراً وأهدافاً وأساليب يتفقون عليها فى مجتمعهم الصغير ولا يفشونها لغيرهم . وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلى

ولكن البيت يجب ألا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية . ومهما نمتدح ارتباط الأبناء بالآباء والزوج بزوجته ، ومهما يكن الجو العائلى من حيث التعلق الحميم بين أعضاء البيت ، فان البيوت تحتاج إلى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيارة ، والمبالغة فى الارتباط العائلى هى شطط الفضيلة ، فضيلة التعلق العائلى

ولكن فرد منا حياة سرية أو كالسرية كأنها العقل الكامن فى النفس يوجهنا من حيث لا ندرى ، ولكل منا أيضاً حياة اجتماعية علنية كأنها الوجدان الذى ينتقد ويحاسب ويراجع .

والحياة السوية هى تلك التى تصالح بين الكامنة والوجدان وتوفق بينهما ، ففى البيت نحن نختمر ونتهيأ . وفى المجتمع نحن نتكشف ونباشر . ويجب لذلك أن نعنى بالضيافة والزيارة لأنهما وسيلة الإتصال بين البيت والمجتمع

يجب أن نعنى بالبيت أجل العناية حتى نجعله متحفاً يحوى تراث الجدود وطرف الحضارة وألوان الرفاهية . ولكن يجب أن نتوقى حبسة الجدران لأنها تحبس النفس عن التوسع والنمو والترقى

ولذلك نصحنا بضرورة الخروج من وقت لآخر إلى المطاعم العامة أو المتنزهات الخلوية . ولذلك نصحنا أيضاً بضرورة التخفيف من أعباء البيت حتى لا يستحيل إلى ورشة لا ينقطع العمل فيها للطبيخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التى يجب أن نفصلها من فضيلة الكرم . ذلك لأننا نقرن الكرم إلى الموائد المطهمة وألوان الطعام السخية .

والضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذا الشره المادى . وقد أنارتنا السيدة نظلة الحكيم فى محاضرات مختلفة عن الضيافة العصرية التى يجب أن يكون هدفها ترقية العائلات بالتعارف والتنوير .

وفى مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على موائدها الألوان لا يكون من مفاخر ربة البيت أن تعد لضيوفها مائدة يتوسطها الدندى وتحتشد عليها اللحوم والحلويات .

ويستطيع وجيه فى الريف أن يزودنا بهذه المائدة المادية ولكنه يعجز عن أمتاعنا بالضيافة المهذبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام أن نعنى بالأثاث فى إيجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرقى حين نفكر فى الضيافة الراقية. وصحيح أنه لابد للضيافة من شىء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يكون ذلك فى حدود التعقل والإعتدال . لأننا حين نستضيف أو نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع إلى حديث يعلمنا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التى لا يتيسر لنا لقاؤها إلا فى مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءاً خاصاً من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوماً كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاى أو المثلجات مع القليل من الاطعمة الخفيفة كالسندويتش كل ما نقدمه للضيوف . وتقديم الشاى خير من اعداد العشاء ذلك لانه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهى فى الساعة التاسعة أو العاشرة ثم هو لا يهظنا بتكاليفه فيثبطنا عن المواظبة

ويجب أن يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف . وقد يكون رب البيت أو ربة هذه البؤرة إذا كان أحدهما ممتازاً له مكانة اجتماعية أو أدبية أو احتبارات نشتاق إلى الوقوف عليها . كأن يكون أحدهما عضواً فى جمعية لها نشاط معين . ولكن إذا لم يكن هذا متيسراً فان من الحسن أن تدعى شخصية ممتازة أو ترتب محاضرة فى موضوع يهتم له الضيوف . ثم يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد إلى أن نقول أنه يجب إيجاد محاضر فذ فى كل ضيافة . فان هذه الحال المثلى لا تتوافر على على الدوام ولكن ربة البيت التى تتجه هذه الوجهة تستطيع ، فى غياب المحاضر أن تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسى أو اجتماعى يشغل الضيوف ويلهبهم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهى تحرك أعضاء العائلة والضيوف إلى ما يشبه المباراة الفنية فى الزى واللغة والشخصية. كما أنها ، أى الضيافة ، تربى أبناء البيت الناشئين على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبى ، ثم الشاب ، فى حياة انفرادية معزولة . وقد ينشأ خاماً مربوك الحركة ثقيل اللسان لا يعرف كيف يتحدث إلى آنسة أو كيف يشترك فى سمر مهذب منير

وهناك كتب كثيرة فى اللغات الأجنبية تصف فن الضيافة سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعام والشراب الخفيفين أو ناحيته الاجتماعية بإيجاد ألوان من السمر المسلى

وفن الضيافة يقتضى العناية باختيار الأصدقاء والمحافظة على صداقتهم فان الاهتداء إلى صديق والاستمتاع بصداقته طوال العمر أو معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق اليهما . والصداقة لا تنهض ولا تعيش إلا على أسس من العلاقات الروحية التى أثمرها اشتراك فى الثقافة أو الأهداف والمثليات الاجتماعية

البيت معهد حر

البيت فى الاقطار المتمدنة فى أوربا وأمريكا معهد حر لاتسوده سلطة الأب الاتوقراطية. ينشأ فيه الأولاد فى مجتمع راق يختلطون بالضيوف ويجدون فى هذا الاختلاط تنويراً وتدريبا على المعاملة والايناس والحديث والكلمة العذبة، والعبارة المهذبة. كما تجد الزوجة فيه مجالا لترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها.

وكلمتا البيت والعائلة تندمجان فى معناهما. والبيت الأمثل هو الذى تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الأولاد

وإذا كان هؤلاء فى سن صغيرة يحتاجون إلى الإرشاد فانه يجب أن يكون خاليا من الاستبداد والتسلط. لأننا يجب أن ننشد مبادىء الثورة الكبرى، أى الثورة الفرنسية، فى البيت قبل أن ننشدها فى المجتمع. أى يجب أن نعمم مبادىء الحرية والإخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها فى المجتمع.

ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطى فى البيت قبل أن يمارسوه فى المجتمع.

واعظم ما يكوّن الشخصية فى الرجال والنساء هو الحرية. اى الحرية التى تلق على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها. فيؤدى تحملها إلى نموهم . وإذا انعدمت الحرية من البيت استحال إلى سجن . وبعيد بل محال أن تتكون الشخصية فى السجن حيث لامجال للحرية أى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب، هذا الاحســـاس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل .

وفن الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصية . إذ ليس شىء أجمل فى هذا الكون من الشخصية اليانعة التى عاش صاحبها فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى تدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو يسير فى الدنيا وهو على نور وهدى .

ونحن فى مصر ، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا الماضية ، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك أمام الأطفال والفتيات والسيدات . فلا تجد شخصياتنا التربية التى تؤدى الى انضاجها واينائها. فينشأ الشاب وهو فى خوف من الدنيا لا يقتحم فى تفكيره أو عمله . وتنشأ الفتاة وهى محجمة متراجعة تلتزم الصمت والسكون والاستحياء

والتراجع كأنما هذه خطة حياتها. فلا تحي الحياة المليئة ولا تزدان رشاقة الايماءة ولباقة الكلمة ولذلك تخسر كثيراً من جمالها الروحى، هذا الجمال الذى لا يعوض منه جمال الجسم الذى يبدو راكداً جامداً. وهو كذلك بالمقارنة إلى الفتاة الاوربية التى تتذبذب حيويتها طربا فى شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا فى شجاعة وانطلاق واستطلاع فى حين تواجه فتاتنا المصرية دنياها فى تقلص وخوف من الاستطلاع. وذلك لأن الأولى عاشت فى حرية فى حين عاشت الثانية فى قيود التقاليد.

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض فى البيت. وإذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه فى الثقافة فيجب أن يدأب فى رفعها إلى مستواه وأن يجعل من وسطه الاجتماعى ما يحملها على الارتقاء نعنى بذلك أن نختار من الضيوف والزائرين، الذين يتبادل واياهم الزيارة، أولئك الأحرار المتعلمين الذين يحضرونها الى أن تثقف عقلها وأن نتجه الاتجاهات التى تزيد البيت فناً وجمالا كما تزيد حياتها نضجاً وإيناعاً

وقد يتعب الشاب فى سنيه الأولى من الزواج وهو يوجه زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا التعب فى سنوات عديدة من الهناء الذى تثمره مزاملة قائمة على المساواة الحقة فى الميزات والتأنقات الذهنية.

أما إذا أهمل تثقيفها فانه سرعان ما يجد الانفصال الروحى قائما بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان فى مأوى

وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم مما لا نحرم منه حتى الحيوانات التى يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا فنرهقهم بالدرس فى الوقت الذى تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة فى اللعب والمرح. بل أحياناً ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم من التربية الاجتماعية الحسنة التى يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا فى بيئة غير حسنة .

وشبابنا فى مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية والافرنكية . وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التى تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف فى حياة المتمدنين . وينشأون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها . فينكرون الحرية على المرأة والأولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والاحجام، تلك الحياة التى تجعلهم يعيشون فى نسك أو ما يقاربه، ويكرهون متع الحياة العائلية و يتوقونها .

أجل . إن شبابنا يجهلون ان الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة

فى غرفتها لا تقل مجلداتهـا عن مائتى أو ثلاثمائة مجلد وهى تصر على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون ان الضيافة لا تنقطع فى البيت الأوربى الراقى . وأن الأولاد يدعون أصـدقاءهم إلى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المرانة الاجتماعية والضيافة الراقية . وأن الاختلاط بين الجنسين لا ينقطع منذ الطفولة إلى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات البشعة التى تفشو فى المجتمعات الانفصالية فى الأمم الشرقية . فالحيـاة هناك أملأ وأمتع والشخصية أتم وأينع .

يجب أن نعيش فى حاضرنا

نحن لانعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا من إحدى هذه الحيوات. وإذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، وإذا عوملنا فى أثنائها كما لو كنا شباناً ، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحي حياة معينة كان من حقه أن يحياها . إذ هى لن تعود .

ولكن هذا هو ما نرى فى عصرنا . فان كثيرا من الآباء يحرمون أبناءهم من صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب إعداداً للمستقبل. كأن الحاضر لاقيمة له، وكأنه يجب أن يضحى به من أجل المستقبل، كما يضحى بالصبا من أجل الشباب . وكثيراً ما نرى صبياناً بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة فى الدراسة إما بضغط آبائهم وإما بترتيبات جهنمية حين يحضر المعلمون اليهم فى البيت ويقهرونهم على الدرس . مع أن هذه الفترة من العمر تنادى باللعب والمرح وبالتجارب التى يخترعها الصبي لفهم الدنيا. وليس من حقنا أن نحرمه منها .

وهنا نعود إلى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان

الأولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتبـــار أنه صبي فقط يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقـه الطبيعي . ولـكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفـكر فى مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التى نتوهم أنها تسوده ، نبـالغ فى تفـكيرنا إلى حد القلق فلا نفـكر فى منطق وتعقل ولـكن فى خوف وفزع . ونسرف فى تأكيد الدراسة وحرمان الصبي من صباه أى حرمانه من إحدى حيواته التى لن تعود اليه . ولو عقلنا لأحسسنا الإجرام فى هذا العمل .

وليس من شك فى أن نظام المباراة الذى نعيش فيه، والذى يسود مجتمعنا، يجعلنا جميعاً فى خوف دائم من المستقبل. ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله فى التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحياناً إلى قلق نيوروزى أى ارهاق نفسى نعجز عن تحمله وهو يبدو فى خوف أو فزع . فان البخيل الذى يحرم نفسه من المتع الصغيرة وهو يجمع قرشاً على قرش إنمـا يفعل ذلك لمركبات نفسية هى فى حقيقتها أمراض يحتاج إلى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التى تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيـأ لليوم الأسود بالقرش الأبيض . مع أن من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش

الأبيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة فى هذا اليوم الاسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من الخوف من المباراة العامة التى لا تجعل أحداً مطمئناً على مستقبله فأسرف فى التهيؤ لهذا المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤميـة حتى صار البخـل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التى قد تطول ولـكنها تطول هزيلة بلا عرض أوعمق . والعادة لثبوتها تحرمه من الترفيه عن نفسه مهما ساءت الاحوال .

ونحن جميعاً نحتقر البخل . ولـكننا ننسى أننا حين نحرم الصبي من صباه إنما نتجه وجهة هذا البخيل فى الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنـــا أحسن ساعاته لاقتناء العقارات والاثراء إنما نتجه هذه الوجهة أيضا وإن كنا لا نبلغ درجة البخيل فى الحرمان .

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش فى حاضرنا فنتمتع بمتع الطفولة فى طفولتنا . ومتع الصبا فى صبانا ومتع الشبـاب فى شبابنا . ولا نؤجل شيئاً من ذلك تهيؤاً للمستقبل . لأننا لسنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فاذا حرمنا الشاب من متع شبابه بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لا نثق بأنه سيعيش الى هذا المستقبل المنتظر .

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعامى عنه . ولكنا نعتقد أن من يعيش فى حاضره إنما يعيش أيضاً لمستقبله . ونعنى المعيشة السليمة . فان هناك فرقاً بين اثنين يخافان المستقبل . أحدهما يبخل ويقتر ويبالغ فى الحرمان والآخر يؤمن بأداء قسط سنوى لاحدى شركات التأمين مثلا

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ يدرس فى المدرسة ويلعب خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه ، وبين آخر يرهق بتكاليف مدرسية أخرى فى بيته، تراه قد حبس نفسه بعيداً عن والديه وأخوته وسهر الليالى

والرجل السوى الذى تتزن أعصابه يكتسب من حاضره بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر اليه مطمئناً فلا يجنح إلى التقتير ولا يهرول فى جهده لاقتناء المال

وإذا عشنا فى حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه، وتمتعنا بمتعه فاننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعددنا للمستقبل . فالرجل الذى تعود مثلا القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة والمجلة انما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك يتهيأ بها لشيخوخة يقظة بعيدة عن السأم والتبلد .

وكذلك الرجل الذى مارس عملا كاسباً وانتفع بالتأمينات

المألوفة يسير نحو المستقبل فى طمأنينة .

أما إذا كانت الأيام حبلى بمفاجآت ، كما رأينا فى الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العاقل وفزع المجنون وتقتير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت . أى جميعنا عندئذ سواء . وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد إلى يد الدولة

ومن المألوف أن نجد شخصاً يكد متعباً مهموماً فى اقتناء الثروة وفى نفسه شوق إلى الاستمتاع فهو يحلم بالبيت الذى سوف يبنيه أو ببضعة الفدادين التى سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . أو هو يحلم بالسياحة فى أوربا . وقد يحلم أيضاً باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع فى برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التى تنيره وتثقفه . ويفعل ذلك وهو فى الثلاثين أو فى الاربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنت مخطىء . لأنك حين تصل إلى سن الستين تكون العادات التى مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها .

ثم وأنت فى الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت فى الثلاثين أو الاربعين

ولذلك يجب أن تعيش فى حاضرك وتبدأ الآن فى استمتاعاتك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك إلى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت كفاءتك للاستمتاع بها . اذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا غير متع الشباب .

النمو والتطور

عندما نتأمل رجلا جامدا رجعياً وآخر متطورا ارتقائياً نجد أن لكل منهما اتجاها قد عين مزاجا خاصا . فالأول فى صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيراً من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . فى حين أن الثانى ، ذلك المتطور الذى لا يبالى التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية وهو يدعو إلى نهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو إلى تغيير فى الأدب أو الاجتماع. ولذلك نستطيع ، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين ينشآن من الخوف .

وقد يكون المرجع والأساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكراهة والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لا تكونان إلا فى استبقاء حالته ، إذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، وفى تجنب أى تغيير إذ هو يوجس شراً مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحيي الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما الف مليون سنة من تاريخ

الأحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأننا لن نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل السعادة السلبية ، إلا إذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتأمل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة فى نفوسنا . أى أننا نحس اننا غير راضين عن حالتنا إذ ندأب فى التفكير فى فى تغييرها . وليس الإيمان بالمستقبل ، بل بالشجاعة والإقدام سوى إيمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة والجمود والرجعية سوى الجبن والخوف . وكلاهما يحملنا على الركود والتقلص .

والأمم « الشرقية » لفرط ما عانت من مظالم ملوكها وأمرائها وحاكميها يغلب عليها الجمود إذ هى على الدوام متشائمة بالمستقبل تخشاه وتتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش فى الماضى . أما الأمم الأوربية فتكاد ترقص للمستقبل وهى ترضى بالتغيير والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهباً

وليس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلا وأن يتجنب التشاؤم . لأن هاتين الحالتين قد تكونتا فى الأغلب

منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكمت فملأت القلب شكوكا وشبهات بشأن المستقبل . ولكن من السداد أن نبين أننا لن نستطيع ان نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين . وعلى كل قارىء عندئذ أن يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما . وهو إذا هبط على هذا المرجع عاد إلى التفاؤل والشجاعة .

واوضح المظاهر للارتقاء والتطور والنمو هو الثقافة . وصحيح ان هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية او سياسية فيبرزون فى هذه الجهات ويجنون منها ثمرات السرور . ولكنها بالمقارنه إلى الثقافة تعد ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية .

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسياً ذاتياً لا يستطيع احد او ظرف ان ينتزعه منا . والنفس تتطور بالتغير الثقافى فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا او الشباب وتهبط على عوالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل .

والذى نحب أن نثبته ونؤكده انه ما دمنا فى تطور ثقافى فإننا نتجنب السأم والجمود والتبلد فتمتلىء الدنيا حولنا مباهج فلا يكربنا اليأس بل نتحمل حتى الكوارث المرهقة .

وإذا اعتدنا الثقافة فإن الأغلب اننا نخرج منها بمذهب كفاحى للخير البشرى . وهذا المذهب يغذونا وينير بصيرتنا عن مغزى الحياة كما انه يوفر لنا اهتمامات لاتنقطع . وما دمنا فى هذه الاهتمامات فاننا لن نحس هذا السأم القاتل الذى يغمر حياة المنغمسين فى الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها .

وفن الحياة هو ، فى معنى ما ، فن العيش فى سرور إن لم يكن فى سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بإيجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية .

وعندما نعمد إلى دراسة ، نحس إحساساً عميقاً بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كى نوفرها ، إلى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجدده .

وكلما تقدمنا فى السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين ، يتوانى نشاطنا وقد نتبلد أو نجمد . ولكن ، إذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجاً للحياة ، فاننا ندخل فى دور الكهولة والشيخوخة ونحن مستبقين لشبابنا مبتهجين بالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة اى بالأفكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فاننا فى حاجة إلى تأكيده إذ ليس هناك ضمان

للشيخوخة السعيدة إلا مع الثقافة الدائمة التى تستبقى الذاكرة فى حيويتها القديمة

وهناك ألوان من الارتقاء كثيرا ما نأجمه . فاننا عندما نندفع فى اقتناء المال ، او عندما نبذل جهودنا كى نحصل على مركز اجتماعى كنا نطمح اليه ، نجد ان الهدف الذى وصلنا اليه دون ما املنا وتمنينا من حيث قيمته فى جلب السرور إلى نفوسنا . إلا الثقافة فانها تملأنا غبطة ولذة اكبر مما كنا نحلم به

ولعل مرجع هذا ان آفاق الثقافة واسعة متشعبة ليست لها نهاية فى حين ان المركز الاجتماعى او المالى نهاية . ولذلك لن نعرف السأم إذا جعلنا غايتنا من النشاط والنمو ثقافية .

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى انسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية، أوحتى يتسامح فى الكثير منها، إلا بمجهود شاق يضنيه ويقيم من المجتمع، الذى يرتضى هذه القيم، خصما له. ولكن يجب أن نتنبه من وقت إلى آخر إلى هذه القيم الاجتماعية، حتى لا ننساق فيها ذاهلين. وحتى لا ننسى اننا بشر قبل أن نكون مصريين أو فرنسيين أو عرباً. واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا هذا الوجدان.

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها. فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال. والجمال فيها اثاث فاخر أو جواهر غالية أو أتومبيل مطهم أو رسم على جدران أونحو ذلك مما ننساق فيه فنتوهم اننا سادة نختار ونقرر مع أن الواقع، اننا فى الأكثر، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى علينا الاستقلال.

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين على هذا العرف الاجتماعى. مثل تولستون الذى هجر المدن وعاش فى عزبته يصنع حذاءه بيديه. أو غاندى الذى نزع عن

جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا إلى قنوعه من الطعام باللبن والفواكه . أو ثورو الكاتب الأمريكى الذى ترك المدن وبنى لنفسه كوخاً لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين إلى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطير. وقد قال عن هجرته هذه فى الغابة وحياة الفطرة .

« إنى اردت أن أسوق الحياة وأحرجها فى زاوية كى أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو إلى نفسه ويستمع الى همساتها بعيداً عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خاليا من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كى يستكنه اسرارها ويصل الى أصولها ويتعرف الى الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها.

وكلنا يحس فى أعماق القلب والمخ اننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة.

ولذلك يجب على كل من ينشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها.

وهو عند ما يفعل ذلك ، وعند ما يألف الطبيعة ، سيحس انها أي الطبيعة تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عندالغروب ، وفى بزوغ الشمس عقب سكينة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ، مما يجعله يحتقر الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونعتنى فى جمعه والتفاخر به

وليس من الضرورى أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة الى مكان قصى نعيش مستوحدين سنتين أو اكثر كى نصل الى جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها. فان اللجوء الى الريف من وقت لآخر، وقضاء أيام بل احياناً الساعات فيه، يضىء بصيرتنا ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الأعشاب والطفيليات حول السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غاندى لم يخسر حين نزع ١٥ قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع انه كسب . أو بكلمة اصح : هو كسب من حيث القيم البشرية وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

واحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل شىء على الأرض الى خلق سحرى ، أو حين اتأمل الشفق فى رائعة جماله ، أو حين اخرج فى الفجر أنتظر بزوغ الشمس

والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلق إلا منذ دقائق ، او اتأمل اسراب الغربان وهى عائدة الى عشاشها عند الغروب ، او اليمام وهو يغازل على استحياء وفى طمأنينـة ، او حين اتأمل هذه الحرب الخفية السرية بين النبات والحيوان فى ديسة او خميلة على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتل الوقت على القهوة بدلا من ان يجرى ساعياً لاهثاً الى الريف كى يختبر هذه الدنيا فى اعماقها وصميمها .

واتعجب من انسان ، او بالأخرى انسانة ، تعتقد الجمـال فى عقد من اللؤلؤ او قلادة من الألماس مع ان جبلا من هذه الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق او القمر .

ويفشو الجهل بالطبيعة ، اى بالدنيا ، حتى نجد انسانا «يعرف» طائفة من المعارف المكروسكوبية عن الأدب او للعلم . وهو يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الأول . فـلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان .

وقد جزأتنا الوطنية اجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا لا نشتاق الى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا او مساقطنا الرائعة مثل نياجرا . لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود ونياجرا هو ملك خاص بالأمريكيين .

بل الواقع اننا لانشتاق الى رؤيتهما لأن القيم الإجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج « الجميلة » بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب . وكثيرا ما ادخل البيوت التى تمتاز بحدائق فاجد اشجاراً اسأل اصحابها عن اسمائها فلا يعرفون . . . لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديراً لقيمة النبات او احساساً بان الشجر قريبنا نحن . وهم يعيشون فى وحدة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف الى اسمه او أصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الذاهلين الى الوجدان واعيد اليهم القيم البشرية بان اسأل احدهم : هب انك اصبت بمرض قاتل ووثقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين ان تقتنى الف اقة من الألماس واللؤلؤ ومئة قنطار من الذهب ، او تقضى هذا العام الباقى من عمرك على هذا الكوكب فى زيارات رائعة الى القطب الشمالى وجبال هملايا ومساقط نياجرا وغابات افريقيا ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك فى صيد القيطس عند القطب الجنوبى وترى الفيلة فى غاباتها فى الهند . اجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية فى الهند واليابان ونروج واستراليا ،

وترى الانسان البدائى والانسان المتوحش والانسان المتمدن. ومقدار التدمير الذى احدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا.

لو خيرت بين هذين لاخترت بلا شك أن تقضى عامك فى زيارة الارض التى عشت فيهـــا ماضى عمرك وأنت محبوس محجوز فى بقعة معينة تظن أنها كل شىء وتقضى سنيك فى اقتناء بهارج ليس لهـا غير القيمة الإجتماعية التى تحمينا عن الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد أن البشر فى المستقبل سينفضون عن عواتقهم التكاليف الباهظة العديدة التى يتحملونها الآن من الحضارة ويفكروا فى القيم البشرية . وسوف يجدون فى الآلات المنتجة ، ل فى الطاقة الذرية ، ما يجعل العمل الإنتاجى سهلا لا يحتاج منا إلى قضاء الوقت أو الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا الكوكب وطن البشر جميعاً . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات والغابات، بما تحفل به من حيوان ونبات ، كنوزاً يحتفظون بها ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب ان نذكر أنفسنا على الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب أن نحتال بالتوفيق بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف . ويجب

ان تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فان صيد السمك ينزعنا احياناً يوماً كاملا من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط طبيعى . وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى تختمر فيها الكامنة وقت السكينة عند شاطىء النهر ثم يؤدى اختمارها الى تهيئة الوجدان للانتاج المثمر

اجل يجب ان نتنبه على الدوام الى القيم البشرية ، ولا ننساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب ان نذكر ان الطبيعة ، اى الأرض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات والحيوان ، هى كنزنا الأول الذى يجب ان نقتنيه اقتناء نفسياً وندرس جماله وتستمتع به وذلك بالإتصال الذى لا ينقطع به .

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هي عادات كامنة تكيف عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتماماتنا . وكثير من النجاح أو الخيبة يعزى إلى الاتجاه والغاية . لأن النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام. فاذا تعينت لها غاية ، يهدف اليها النشاط ، نشطت . كذلك الاتجاه يعين الأسلوب الذى نعيش فيه .

اعتبر صبيا أوطالبا يتجه نحو الأولوية فى المدرسة وينصبها غاية . فهو يكد ويتعب ويثابر كى يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه أسلوبه فى الدراسة بحيث أنه يبتئس كثيراً إذا زحزحه آخر عن مركزه الأول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيفه العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضرورى أن يكون هذا التلميذ أذكى من غيره من المتخلفين عنه . وإنما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفى وليس ذكائيا . لأن الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمى أو الذهنى .

اعتبر كلبا جائعا ، وآخر شبعان . فالأول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشى وأنفه للأرض يبحث عن الطعام . وهو فى هذه

الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش. وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر الشبعان فانه قاعد راكد أو نائم .

فالعواطف هي المواطر التى تحركنا . والاتجاهات والميول والغايات إنما هي عواطفنا التى نتحرك بها إلى الدراسة والجد وغير ذلك . وهي كما تحرك أجسامنا تحرك أيضا أذهاننا ، فنتنبه بعد الغفلة وننشط بعد الفتور .

والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الطموح والركود ، اتجاهات. ولكل منا خارطة روحية أو ذهنية أو نفسية يرتسم بها العالم ويحدد ما فيه من قيم وأوزان اجتماعية او بشرية . وبهذا جميعاً يتجه نحو غاية او يرى رؤيا ويتخذ أسلوبا . فالمتفائل يتحمس ويتحرك ويجد لذة العيش. والمتشائم يتبلد ويركد ويجد الحياة ماسخة لا يتطعمها . ومن هنا مثلا قيمة الدين عند المؤمن . فإنه يجد فيه الرؤيا كما يجد الأسلوب . فيكون الدين له بمثابة الصابورة التى تتزن بها حياته ولا تتقلقل إذا ضربتها الزعازع والكوارث .

والرؤيا هي ثمرة التفاؤل . لأن المتشائم لايرى رؤيا . فلا يمكن مثلا أن تكون اشتراكيا تؤمل المساواة والإخاء بين

البشر إلا إذا كنت متفائلا . والعكس صحيح . لأن الرجعى المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التى لا تتغير ولا يمكن معالجتها . فهو لذلك متشائم بلا رؤيا . ولذلك يكافح الأول . ويركد الثانى .

وقس على هذا . فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح وهذا الروح يحملنا على الدراسة والرقى . فنجد لذة الحياة فى الكفاح كما نرتقى به .

الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية ، والكفاح ضد التعصب الدينى واللونى ، والكفاح ضد المرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحرك به عواطفنا وتنشط . بل كدت أقول : تتذكى عقولنا . ونحن بهذه الأنواع من الكفاح لانخدم أمتنا فقط بل نخدم انفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع فى الحياة .

وربما كان أعظم الاتجاهات اتجاه الحب باعتباره أسلوبا للعيش . لأن الحب يزيد الفهم . أى اننا نفهم أكثر عندما نحبه ونفهم أقل او أحيانا لانفهم عندما نكره . ألا ترى أن الأم تفهم الشىء الكثير من إيماءة طفلها أو أى طفل آخر إذا كانت تتجه وجهة الحب . . فى حين غيرها الجامد أو غير المبالى

أو الكراه ، لا يفهم شيئاً ؟ .

وهناك من يقول إن الحب يعمى . ولكن الحقيقة ان الحب يبصر ويفتق الذهن للفهم والمعرفة . ولكن الكراهة والحقد والبغض والنفور ، كل هذه تعمى وتغشى على عيوننا وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم .

والرجل الذى يحب الحياة الفنية ، ويحب الانسان والطبيعة ، ويحب الثقافة ، يجد أنه بقدر السعة فى حبه ، يزداد فهمه وتعمقه ورغبته التى لا تنقطع فى الأستزادة من الفهم والدرس والاستطلاع . ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف اليها فى اصلاح منشود أو ظلم يرفع أو اختراع يحقق . فيعيش سعيداً بهذه الأفكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفصفر يضىء على ما حوله .

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبرة بأنه يخالف التقاليد . لان الدين هو نقطة التبلور فى اختباراتنا وثقافتنا . والرجل الذى يختبر كثيراً ويدرس كثيرا ويتجه وجهة الحب لابد أن يصل إلى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الدين . ومن هنا كفاحه وإنسانيته لأنه فى جميع كفاحه الماضى إنما كان يحاول أن يكون إنسانا إنسانيا وأن يحمل البشر على أن يكونو إنسانيين .

وإذا كان رجل التقاليد ينبزه بأنه ملحد أو كافر لأنه يضل في اشتباكاته الثقافية ، فان غيره من المتعمقين يعرف إيمانه ، هذا الإيمان الذي وصف به فولتير في كفاحه للمتعصبين والمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحي في فرنسا . ونحن الآن نعرف أن الدين بل القداسة كانت في قلب فولتير . وأن الكفر كان قلوب أولئك الكهنة .

وخلاصة القول إن فن الحياة يقتضينا أن تكون لنا اتجاهات وميول تنتهي إلى رؤيا . فنكسب منها المذهب البشري بل الدين ونجهد ونخدم في تفاؤل وحب ، نحب الإنسان والشرف والمجد والصحة والخير ونحب الحيوان والنبات والجبال والانهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على نشاط دائم مكافحين محبين للخير كارهين للشر .

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التى ألفها كتاب خالدون نجد أننا إنما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاماً ، وتجد مرح الحياة فى المغامرة والدخول فى الغمر العباب دون القناعة بالشواطىء والمخاضات، وأما نجد، بدلا من هذه الشخصية ، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها إلى الأعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر فى الحياة .

ومع إننا نقرأ كثيرا فانه قلما يخطر ببال أحدنا أن يعيش فى هذه الدنيا كما لو كان بطلا فى قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهى هو وهو هى .

ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلنا ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التى يقرأون. فالشاب الذى ينكب على قراءة قصة ما إنما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة فى القصة . والفتاة التى تدمن الذهاب إلى الدور السينمائية إنما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدرامـــة التى تشاهدها . وهى تعيش ، بجميع إحساساتها ، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات. ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست

سامية . ولذلك فأن المطابقة بين قارئها أو مشاهدها وبين ابطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على أن نجعل حياتنا سامية نعيشها فى فن وحذق وتأنق ومجد .

ويجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هى كذلك من أول ساعة نخرج فيها من الرحم إلى هذا العالم . فأن الموتى الذين لا يطيقون هذا الخروج كثيرون جداً . فأذا كانت بداية حياتنا مغامرة فيجب إلا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبق هذا الشعار سائر عمرنا . ويجب إلا ننسى أبداً أن الطمأنينة التى نتوخاها هى على الدوام جزئية ونسبية وظرفية . لأن الطمأنينة التامة هى الموت ،

ومن أجمل أوأحكم الكلمات التى خلفها لنا نيتشه قوله : كل مالا يقتلنى يقوينى . وأيضاً قوله : «عش فى خطر . وذلك أن الحياة اختبارات فأذا واجهنا خطراً وخرجنا منه دون أن يقتلنا فقد كسبنا الأختبار وازددنا بذلك عرفانا بالدنيا وحكمة فى الحياة . وإذا عشنا فى خطر زال عنا الذهول الذى تتسم به العامة وصرنا فى يقظة وتنبه وذكاء وفهم . «تكون الدقائق عندنا بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام .

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من

حياة طويلة هزيلة يعيشها الإنسان فى ذهول، كأنه بلا وجدان.
والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامراً لأنه يسير فى أرض مجهولة لا يعرف نهايتها . وهو فى هذا الاكتشاف أو الإختراع يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب .
ومن منا لا يحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أو ثلاثة أشهر فقط وهو يتطلع إلى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلا من قضاء مئة سنة وهو منزو فى شارع لا تضيق حدوده الجغرافية فقط بل تضيق فيه أيضاً حدوده الذهنية والنفسية . . ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون او غاندى لاقتحامات الأول الحربية واقتحامات الثانى الروحيـــة . ونقرأ سير القديسين والمصلحين والمخترعين فى شوق لأننا نطابق بينها وبين انفسنا فى رغبة حارة للاقتحامات التى امتحنت حياتهم فخرجوا منهـا اوفر حكمة واعمق فهماً .

ولنا مما قلنـــا مغزيان . المغزى الأول ألا تلتزم الدعة والطمأنينة فنحجم ونتقلص ونتراجع امام الأخطار . والمغزى الثانى إلا نبالغ فى شأن الكوارث التى تصادفنا . لأننا ، مادمنا لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين ازددنا بهما فهما وحكمة .

وكتب الأدب العالى تكسبنا من الاختبارات ما لا يحصل

عليه فى مجتمعنا . والشعر العالى هو احسن ما فى الأدب . لأن الشاعر يعرف انه لن يثير فى القارىء حماسة او يلهب فيه ناراً الا اذا ارتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء فى الموضوع ام فى التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الإقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل .

واسأل ايها القارىء ، أى انسان متقدم فى السن . فأنه لابد آسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لا يأسف لأن الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسبة بل لأنه يحس انه كان يكون أسعد لو انه اختبرها وعاش فيها .

وقد كان المتنبى يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى   ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع الوجدان أى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .

والخوف من الإقتحامات هو فى صميمه خوف من الحياة أو هو اسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة إليه . والرجل الذى يخاف لا يعيش غير تلك الحياة النباتية البقلية ، يعيش آمناً فى مكانه يخشى ان يتزحزح لئلا يسقط .

الحيـــاة المليئة

عندما نتأمل المخ ، أو بالأحرى قشرته الرمادية ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التى تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الافكار والمركبات الذهنية الجديدة ولكننا نقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الافكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عشر المخ كان يكفينا . ولو أننا عنينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربيـة تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم بالعقائد والجرى على الاسلوب الاجتماعى الفاشى، لو أننا عنينا بهذا لكان كل منا فيلسوفا أو عالما مخترعا . لان فى القشرة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع للملايين المركبات الفكرية . ولكننا نتركها بائرة فى جدب بلا حرث أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها.

وحياتنا الفكرية هى بعض حياتنا البشرية ، وإن يكن هذا البعض أفضل ما نملك . ونحن للأسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية. فقد تطول حياتنا ولكنها لا يكاد يكون لها عرض أو هى تمتلىء بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتلىء بالحياة . وقد دعانا الإنجيل إلى التوسع والتعمق فى الحيـــاة حين نبهنا إلى قيمة

« الحياة الوفيرة » وما الوفرة فى الحياة سوى وفرة الاختبارات بالنشاط والتجدد . فالحياة الراكدة أو الجامدة ليست وفيرة أو ، على الأقل ، ليست فى وفرة تلك الحياة التى تتذبذب طربا ومرحا فى الدنيا .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التى اختارها أبو تمام لمجموعة الأشعار التى جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فان البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التى تجمع المتشتت من النور فى بؤرة مركزة ، فنحس العاطفة الذهنية فى حماسة تثيرنا طربا أو إعجابا أو تفكيرا . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الحياة . إذ يجب أن نعيش فى حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أى هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه اليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعانى الفنية ، معانى الشعر ! التى يجب أن ننقلها إلى الحياة .

وعند التأمل نجد أن لنا ثلاث حيوات نمارسها جميعا . وهى فى صميمها ثلاث ذوات .

فان لنا الذات الصغرى الأميبية ، ذات الرجع الانعكاسى ،

التى نشاهدها فى الأميبة والاسفنج وأحط الأحياء .

ولنا الذات الصغيرة الحيوانية ذات الشهوات والغرائز ، للأكل والتناسل والتسلط ، التى نشاهدها فى الحيوانات الدنيا والعليا .

ثم هناك الذات البشرية ، ذات الوجدان أى التعقل والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هى الحياة الوجدانية التى تحملنا على التخلص من الأنانية الآسنة إلى الغيرية الحية فنتوسع ونتعمق بما يشبه البر الذهنى . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ، هى تلك التى يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسميها « الحاسة الاوقيانوسية » أى زيادة فى الوجدان تجعلنا نحس الاندغام الشخصى فى الكون كله بحيث نحيى فى ذراته وجزيئاته وكواكبه ونجومه ونباته وحيوانه .

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى ما نستطيع أن نقوله فى يقين أن الحياة المليئة تحتاج إلى سخاء وتفاؤل . لأن أعظم ما يحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هو البخل . وهذا البخل ينشأ من التشاؤم الذى يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فنتبلد

ونجمد . ثم نعيش فى حياة ضنينة قليلة الاختبارات . وقد ننتهى إلى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك أنكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما يجب أن يكونا وسيلة وليسا غاية . أى أننا ننسك ونزهد ونعتكف كى نستجم ونعود إلى الاختبارات الفنية والذهنية والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة . وكذلك يجب أن نمارس العفة حتى نسمو بالتعارف الجنسى إلى مستوى من التأنق والفن يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع الوجدان والتعقل مكان الغريزة الغشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهبا وخطفا بل تأملا وحبا ، فنتحدى الجمال بوجداننا فى فن وتفكير إذا تحدى غرائزنا هو فى إغراء واغواء .

والحياة المليئة تحتاج — كما يجب أن نكرر — إلى وفرة الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لنتعلم وندرس الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور البشرى . نهتم بها جميعا متفرجين وعاملين . ونعيش فيها بروح الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم ويستيقظ ذكاؤنا وتستفيض شبكة المركبات الذهنية فى القشرة الرمادية المخية . وإذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط ،

وإن كان هذا أفشى مظاهره . لأن أسوأ ما فى البخل نزوعنا فيه إلى التبلد والاعتكاف الذهنى والعاطفى وكراهة الاختبارات فهو لا يعيش ملء حياته .

والحياة المليئة تحتاج إلى التفاؤل بالدنيا والمستقبل وإلى السخاء وإلى دوام الاستطلاع والنمو ؟

الهواية

فراغنا يزداد. وسيزداد فى المستقبل أكثر فأكثر. وسيكون ملؤه أو الأنتفاع به من أعظم المشكلات فى التعليم والتربية بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هى الانتفاع بالفراغ. أى كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب. أما التعليم الحرفى فلن تكون له هذه الأهمية.

وفى عالمنا الحاضر طبقة من الأثرياء تعيش فى فراغ كامل أو تكاد لأن وسائل العيش الممتاز موفرة لها. إذ ان افرادها يستغلون أفراد الطبقات الأخرى. ولكن عند ما نتأمل الطرق التى تتبعها هذه الطبقة الممتازة فى قضاء فراغها أو استغلاله نجد انها ليست مما يغرى. فان سباق الخيل وصيد الحمام والصيد بالقنص فى مطاردة الثعالب او الأرانب وقضاء الليل فى المقامرة أو العربدة الجنسية أو الكئولية، كل هذا أو اشباهه لا يدل على ان هذه الطبقة المترفة الممتازة قد عرفت شيئاً يمكن ان يوصف بأنه «فن الفراغ» بل هو يدل على ان هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه إلا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت.

وتطور الآلات والزيادة فى الأنتاج وتوافر الضروريات

لكل انسان ثم توافر الكماليات فى المستقبل ، ستجعلنا جميعاً فى شبه تعطل . لأن طرق الانتاج العلمية التى لا مفر من استخدامها فى العالم كله قريباً ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد فى أقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعاً معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج إلى مايشغلنا . فاذا لم نجد المفيد الذى يرفعنا ويرقينا عمدنا إلى المضر الذى يحطنا .

بل نحن ، قبل أن نفكر فى المستقبل ، نجد أن حاضرنا يوفر لنا ، أو بالأحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغا يترجح بين اربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وان نتعلم كيف نملأه . وعند الانجليز كلمة « هوبى » لما نسميه بالعربية « الهواية » اى العمل نعمله للذة فقط لا نبغى منه كسباً . وعند ما نملأ فراغنا بهواية نجد فى الفراغ تخفيفاً بل معالجة للتوازات التى نستجيب بها حانقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . وكلنا يعرف ان الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التوترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فاذا كانت الحركة فى عمل محبب تتجه إليه الإرادة فى نشاط حتى تستحيل إلى حماسة ، فان الاتزان النفسى الذى ربما يتزعزع من ارهاق العمل الحرفى ، يعود إلينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين .

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم فى الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم . وأن ننفق بسخاء على ما يحتاجون إليه لشغله. وذلك لأن فراغهم فى المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارىء أن يقصد إلى إحدى المكتبات فى القاهرة ويطلب إحدى المجلات التى تعالج الهوايات واسمها «هوبيس» وهى فى الأغلب انجليزية . ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن ينتفع أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل إلى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفرداً فى الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش ، ولا غير وسيلة واحدة للترفيه والترويح . إذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجا بل خير لنا أن تتعدد الطرق .

وقلما يخلو بيت فى أوربا من غرفة يستأثر بها الزوج لا يجوز لزوجته أن تتدخل فى ترتيبها . وفى أغلب الأحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة الى سطح البيت وهى مريحة فى فوضى الأثاث والأوراق . وهى ملجأ أو معتكف يلجأ إليها الزوج كى

ينفس عن كظومه أو يفرج عن توتراته . وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى النتوءات التى تنشأ من العمل أو من العائلة .

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين يسعدون بشيوختهم ، حين يحيلهم المجتمع على التقاعد ، يكونون فى الأغلب قد هووا الدراسة فلازمتهم هوايتها إلى الشيخوخة . وهناك هوايات أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو ، للمرأة ، أنواع من التطريز والوشى والنسج .

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الأندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازاً جميلا خفيفاً من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل واتقنه لا يبغى منه فائدة مادية . ولكن الفائدة المادية جاءته عفوا بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ويقتصر على النجارة .

والرجل ، او المرأة ، التى تشغله هواية مايسعد بفراغه . ويستطيع أن يفتن بهوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يعجل ولا يهرول إذ هو فى فراغ يلبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحبذا المرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقى بها اجتماعياً أو انسانيا

وتجد فيها أيضاً ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللاتى يملأن فراغهن بالقيل والقال .

وربما لا يكون الزمن بعيداً حين تعلم المدارس وتخرج تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تعنى بالفراغ والهواية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب . وفى هذه الدنيا الواسعه هناك لا أقل من مليون هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى إليها . وقد تكون إحدى هذه الهوايات بذرة لإختراع أو اكتشاف جديد يحتاج إليه البشر . وهل فكرت أيها القارىء وذكرت أن كثيراً من المخترعات والمكتشفات إنما كان ثمرة إحدى الهوايات التى ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفى ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا إلى هواية . أولاً لأن حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث على توترات وكظوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسى لأننا نجد فيها كل يوم انتصارا وحماسة . وثانياً لأننا نرتقى بممارسة هواية ما إذ نتعلم فناً أو أى مهارة أخرى تحرك ذكاءنا أو عضلاتنا . وثالثا تحول الهواية دون الوقوع فى العادات السيئة .

وأنت أيها القارىء عندما تجول فى شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السادرين الذين يقعدون على القهوات ويدخنون

فى ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر فى غير مبالاة ، أو تجد النساء فى شجار سافرا او مستتر،فانك لابد عندالتأمل واجد أيضاً انهم يكابدون توترات وكظوماً قد جهلوا طرق التخلص منها. وخير الطرق فى ظروفنا الحاضرة هو هواية لذيذة تملأ فراغهم

وكثير مما ذكرنا فى هذا الفصل قد سبق ان اشرنا إليه فى فصول سابقة . ولكنا احتجنا إلى جمع بعض الملاحظات هنا لما لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخـلوة

يبدو الإنسـان كأنه حيوان اجتماعى لايطيق العيش منفرداً. وهو يعد الحبس الانفرادى أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فان المسجون لايطيق انفراده بين الجدران فى الزنزانة . ولذلك يعاقب المسجونون أحيـانا بحرمانهم من رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون فى الزنزانة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، وأخلاقنا ، تدل على الحياة الاجتماعية .

ولـكنا ، لأننا نعيش فى مجتمع ، نجدنا منساقين فى تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فتبرز فى وجداننا حقائق العيش والـكسب والوجاهة والأبهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزنا . أى أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيراً ما تغطى على الحقائق البشرية الجليلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فان التفكير بطبيعته اجتماعى ، أى أننا نفكر بالقيم والأوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولـكنا لانحسن التفكير إلا فى الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضـائه . والخلوة والهواية كلتاهما ضرورية لنا كى نجد الاتزان النفسى والتـأمل الفلسفى وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع

ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طرقه وأوضاعه كى نرى أنفسنا .

وإذا كانت الهواية تربينا لأنها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا تدريبا وتبسط لنا آفاقا ، فان الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كى نبحث من وقت لآخر عن مراسينا فى المجتمع ، بل فى الكون. لأنها تنزعنا من هذا الموكب الذى نسير فيه ، أو بالأحرى ننساق فيه ، ذاهلين إلى موقف الوجدان والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى صرنا نعد العرف ناموسا أزليا والوضع القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل فى الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول أن نفهم الفهم الموضوعى ، فهم الوجدان والتعقل ، بدلا من الفهم الانسياقى الاجتماعى . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع « إجازة » كى نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجرى وما يجب أن يجرى . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هى التى تحملنى مثلا على أن أحس أنى لست مصريا فقط إذ أنا قبل ذلك بشرى أنتمى إلى ٢٢٠٠ مليون إنسان وليس إلى ١٧ مليون مصرى فقط.

وهؤلاء هم عائلتي الكبيرة التي ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التي توج بها التطور بعد ألف مليون سنة من الكفاح البيولوجي هذا الكوكب . وهم الذين أفكر فيهم حين أتخيل الإنسان بعد مليون سنة .

وما أبدع غاندى حين يصرّ على أن يختص بيوم كل أسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولو لم يختل ولم يعتكف . لأنه فى هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار .

وكل منا محتاج إلى مثل هذا اليوم الأسبوعى . ولكن الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع إلى مقام غاندى حتى نأمر فنطاع أى نطلب ألا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . وإذا نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نختلى بلا كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كى ندون ما يستحق من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتى » وهى صفة المتصوف الذى كان يخلو ويعتكف كى يتأمل منفرداً دون أن يشغله شاغل بشرى أو مادى . وفى حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ماهو الدين ؟ ما هو الشرف؟ ما هو الكون ؟ ماذا بقى لى من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟

وما هو برنامجى : برنامج الحياة ، فى السنوات الخمس القادمة ؟ هل درست ديانتى ؟ هل درست الفلك وهو أقرب العلوم إلى الديانة ؟ هل حياتى الماضية أو الحاضرة يصح أن تستمر كما هى فى المستقبل؟ أو هل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج إلى الخلوة لأنها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكن لا يحسن التفكير فيها إلا فى خلوة . وقد كان جيته يقول : « بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئا بتاتا »

والواقع أن كل مفكر، يرتفع إلى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج إلى خلوة من وقت لآخر . وإذا نظم كل منا خلواته وجعل لها ميعاداً معينا ، مرة فى الشهر أو فى الأسبوع ، ويوما كاملا أو بعض يوم ، فانه يجد أنه فى مراجعته لحياته الماضية ، وفى تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى إلى أساليب وأهداف ما كان ليصل اليها لو انه استسلم وانساق فى المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التى تلابسنا فى البيت والقهوة والنادى والمكتبة ، بل حتى فى الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتوافه وصغائر تتبدد بها حياتنا . ولكن

الخلوة تجمع تفكيرنا فى بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر قد نجد فيه ما نتغير به إلى أحسن .

وليست الخلوة التى نقترح بالشىء الجديد . لأن الواقع أن كلاً منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان أحدنا يخرج إلى قهوة نائية كى يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد ننسطح فى الفراش لا لننام بل لنفكر فى موضوع معين . بل ربما قصد أحدنا إلى طريق متنح كى يمشى فيه منفردا للتفكير . وهلم جراً . فنحن نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج الى ارشاد . ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك أنجع لتفكيرنا وأنظم لحياتنا ؟

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة «الحب» من الكلمات التي تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك احتاج مترجم الانجيل إلى أن يستعمل كلمة « المحبة » للمعنى المسيحى الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا : أنه يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله. فاننا هنا ازاء طائفة من المعانى المختلفة التى كان يجب أن يكون لكل منها كلمة خاصة .

ونحن نقتصر هنا على معنيين هما الحب الجنسى والحب البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر، الاخاء والصداقة والتعاون ، إلى الحب الجنسى . كأن هذا هو الجذر الذى إليه ترجع عواطفنا البشرية السخية. ولكن الحقيقة أن كلا منهما يرجع إلى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسى هى التناسل. وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه « حباً جنسياً » ضروريا للتناسل . فان السمك مثلا يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب. لأن الذكر يلقى بجرائيمه فى الماء .وكذلك الانثى تلقى بويضاتها فى الماء مثله . ثم يتم التلاقيح فى الماء دون أن يعرف الذكر الأنثى.

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتي تتضح من سلوكه هي عاطفة الافتراس والأكل والالتهام. فان الذكر يفترس الأنثى وليس بين الاثنين حنان . واحيانا ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة وافتراس . وإذا كان الحب الجنسي بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فإنما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التي ارتقت بها عواطفنا .

أما الحب البشرى فمرجعه إلى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها . وحب هؤلاء لها . وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسي . إذ هي تتضح حنانا ورقة وهي تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا .

والإنسان البدائي كان دائم الارتحال . فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربيهم . وكان تعلقهم بها يحملهم أيضاً على أن يتعلق أحدهم بالآخر . فاذا ماتت الأم مثلا بقي الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون . وهذه الأخوة بينهم هي أصل الاخاء البشرى بل أصل المجتمع .

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول إنه إذا أحب الرجل المرأة حباً عميقا بشريا فان هذا الحب يحول دون الحب الجنسي . كأن هناك تناقضاً بين الاثنين : الأول كله حنان

ورقة . والثانى بعضه افتراس وقسوة .

وعندما نتأمل الحب الجنسى نجد أنه غريزة ذاهلة . ولكن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستنبط منا أحسن الخصال فى الحنان والرقة والظرف والكياسة بل أحيانا فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الإنسان إنسانيا . وما ندعو اليه من إخاء بشرى ، أو ما نقدره من خصال فى صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحى لتحقيقها ، إنما كل هذ يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف الأمومة والبنوة .

قلنا أن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد فهماً بالحب . لأن الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقيض الحب الجنسى الذى ننساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضا كثيراً مانجد أن بذور العبقرية ، أوعلى الأقل النبوغ ، تعود الى الحب . لأن الصبي الذى يحب الطبيعة ويجمع الأحياء أو الزهور أو الأصداف والمحار ، هذا الصبي يحدوه حب بشرى قد استحال الى حب للطبيعة ينبه ذكاءه ويبسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو بهذا الحب أقرب مايكون الى النبوغ أوالعبقرية . لأنه ، بالحب ،

يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الأم فى ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذى تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أى الحب ، يملأنا تفاؤلا فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم أصدقاءنا ونخدمهم فى سرور . واذا جعلنا أساس علاقتنا بالناس والدنيا حباً فاننا لا نسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم .

ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئاً من الحب العائلى أى من علاقتنا بالأم والاخوة والأب ، ولكن هذا الذى نكسبه عفواً فى طفولتنا وصبانا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب النـــاس الى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء النيوروزى . وكلمة السعادة من الكلمات التى يجب ألا نخلطها باحساس السرور . ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل .

ومن هنا تأكيد الأديان جميعها للحب . إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحيا للحب . ذلك ان الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مرانة . ويجب لذلك ان يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعملياً من ناحية اخرى بالمرانة .

فنحن نعرف ان الرجل المثقف الذى يتجه الوجهة العالمية ويدرك المغزى للتطورات البيولوجية والتاريخية ويدأب طوال عمره فى درس الشئون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب، لأنه يعرف ، اكثر من غيره. وقلبه سمح لأن قلبه أعرف. فاتساع المعرفة سبيل الى اتساع الحب . ولهذا السبب ايضاً يعد الأدب فى صميمه، والفلسفة فى صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والخير العام .

ولكننا نحتاج ، كى نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الأخلاقى ، الى المرانة . أى يجب ان نؤدى عملا ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضىء هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد

يقنع احدنا بالإحسان لمعاونة الفقراء . او الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان او معاونة الصبيان المشردين او نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف اكثر لأن ثقافته اوسع واعمق وهو لذلك انفذ بصيرة فى الأسباب التى تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، ان الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التى يجب ان يقوم بها لأنها جماع الإصلاحات التى ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملا آخر . ولكن المهم اننا نحب بممارسة الحب . وان هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهماً وسعادة ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذى يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقال وأسمى ما يقال عن الدين .

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ الكيماوى فى تحليلاته لأحـــدى المواد التى يقصد إلى عزلها يكون منتهى ما ينشد من نجاح أن يبلورها. أى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامة. وهذا التبلور هو محاولة للوصول إلى الجوهر أى هو تجوهر.

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة أو الريف. فاذا كنا أطفالا تشابهت تقاسيمنا وملامح وجوهنا كما تشابه سلوكنا إلا القليل جداً، والذى تبرزه فروق الوراثة. فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامة لم تتبلور أو تتجوهر.

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص اثره فى كل منا فنختلف. هذا تاجر وذاك محام. وهذا حوذى وذاك مزارع. وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر. وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم. ثم تمضى السنوات، عشرون أو ثلاثون سنة، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها واخلاقها التى تقتضيها. وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهرة من التعميم إلى التخصيص ومن الحال الخامة إلى حال التبلور. وكأن هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منها الجوهر

-١٥٦-

الخاص، اجل. هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية.

لذلك عندما نتأمل أحد الناس، الذين التزموا حرفة ما ثلاثين أو اربعين سنة، لا نكاد نخطىء فى تعيين حرفته دون أن نحتاج إلى سؤاله عنها. لأنها تخبرنا وهو يتحدث لأن لهجة الحرفة غالبة عالية. كما نجد من ايماءاته واختيار أحاديثه جميع الأمارات التى تعلن عن حرفته.

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذى تقلب فى حرف كثيرة، فهو بقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع، مثل هذا الشخص لا يتبلور. فاذا قعدنا اليه لن نعين حرفته، ذلك أن اهتماماته الحرفية لا تتجمع فى بؤرة بل تتشعع هنا وهناك. ولذلك أيضاً لا يترك فى أذهاننا، من حيث الحرفة، صورة معينة

ولسنا بهذا الذى ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم لحرفة ما على الآخر الذى تقلب وتغير. وانما نريد أن نبين أن هناك تبلوراً أو تجوهرا نكسبه من الحرفة التى نلتزمها سنين كثيرة. كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد.

وعندما نتقدم فى السن، ونكون قد عنينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا. نجد أننا أيضا نتبلور ونتجوهر. ولكن ليس

من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هي بعض المؤثرات في الشخصية . ولكن هناك مؤثرات اخرى عديدة إلى جانب الحرفة . وهى تبلورنا وتجوهرنا.

اعتبر شابا فجاً خاما واعتبر أيضا رجلا فى الخمسين قد نضجت اخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الأول لايزال فى التعميم . فهو « أحد الشبان » أما الثانى فقد تخصص وله مغزى وهو رمز إلى أشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية .

وهذه الرمزية وهذا المغزى هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التى قضيناها ونحن نقصد إلى غاية ونتبع نهجا وتكسب الاختبارات وننمو بها . وهى جميعا تصهرنا وتحيل التبر الى المعدن الخالص .

وإذا كانت غايتنا أن نصل إلى الشخصية اليانعة وأن نتبلور إلى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا فى مجتمعنا الى مغزى ، فان التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلا أو مبطئا لانه يحد من حيويتنا واختباراتنا . اجل . يجب أن تكون الحرفة بعض ما يكون شخصيتنا وينميها ويبرز المغزى فى حياتنا . ولكن يجب الا تكون هى كل شيء .

وفن الحياة يقتضينا أن نرقى الى السنين ونسير في التعمير ونحن على الدوام فى ازدياد التبلور والتجوهر ننفى الزيادات ونطلب الخلاصة . وفى حياتنا اشياء كثيرة من هذه الزيادات التى تنمو علينا كما تنمو صغار المحار والودع على السرطان فى البحر فتعوق سباحته وتتطفل على جسمه . فهناك مثلا التزامات « اجتماعية » تبعثر وقتنا . وهناك « مشاغل » مالية تستهلك طاقتنا الحيوية . بل هناك مطامع نشأت ونمت معنا بقوة التكرار وحكم العرف الاجتماعى اذا تأملناها بعد الخمسين الفيناها عقيمة تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيش المعيشة الوجدانية اليقظة فيما بقى لنا من عشرين أو ثلاثين سنة .

لكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التي يتوافر لها الفراغ والمال فتستطيع أن تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعده من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبق الصيني الذي يومىء بزخرفته الى عصر مضى، الى بساط ايراني تزدهي ألوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الأثرياء . بل حتى الكتب القديمة قد أصبحت نوعا من الترف يشتريه الاثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر .

وأدوات الترف هذه تقتنى . ولكن هناك ألوانا من الترف تمارس كالأدب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضاً ضرورة الحياة لأنهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفاً . ولكنها كذلك عند من يهوونها أي يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم . يشترون الكتب الأدبية كي يقرأوها ثم لا يكتفون بهذا بل يحاولون أن يكونوا أدباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الأغلب محاولات عديدة ، تنتهي الى

أن تكون ممارسة مزمنة ، هى نوع من الترف . لأن الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . إذ هو فى الأغلب موظف فى الحكومة أو فى شركة . وقد يكون معلما أو طبيباً أو تاجراً . ولكنه منذ فجر شبابه التفت الى لون من التأنق الفكرى عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك أخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعمد الى التوسع الفنى فيسأل عن الموسيقا والمسرح وينتقد ويتحرى الاصول ويحاول التعمق . وهو هنا لا يبغى كسباً من هذا المجهود اذ هو لا يريد احتراف الفن لأنه قانع بأن يكون هاوياً لا أكثر .

وثق أيها القارىء أن هذا الهاوى الذى لا يكسب قرشاً من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ، هذا الهاوى لا يضيع وقته . لانه بهوايته هذه يرتفع الى أسمى ماوصل اليه التأنق الذهنى . ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعانى ما يسمو على المبتذل المألوف . والأديب يحاول أن يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصيدة فنية . وكذلك الشأن عند جميع الفنانين . والهاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش فى

هذا المناخ ينتهى الى ان يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ ينتقل التأنق فى التعبير الى التأنق فى الحياة . ويعيش عندئذ حياة مترفة تبدو لغيره مثل سائر الحيوات ولكنها فى الصميم فن وترف فى التفكير . ذلك أن الأديب يعيش من يده الى فمه كما هو الشأن فى سائر الناس من حيث النشاط الذهنى . لأنه بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالما آخر يجترّ فيه أفكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضى ويبصر بالمستقبل ويدرس فى تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بما ينبغى أن يكون . وهو قد وجد فى الادباء والشعراء القدامى والعصريين من حدثوه أحاديث الكمال والسمو والعدل والشرف والانسانية والرقى . فهو بهذا كله يجد فى نفسه كظوما تحمله على التفريج بالكتابة . وقد ينجح ويعود أو يبدأ يصف الدواء لمساوىء عصره . وقد لا ينجح فى الوصول الى الجماهير ولكنه مع ذلك قد دخل مدينة الفن والأدب والشعر واستمتع بما فيها من كنوز . وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن يهجرها الى غيرها .

أنى أقصد أن يبدأ كل شاب حياته الوجدانية بالتعرف الى الاداب والفنون . يبدأ متفرجاً متنزهاً . ثم يتدرج محاولا

ثم ينتهى كاتباً . وأقصد أيضاً أن يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الأدب فى الكتاب ولكن يجب أن ينتهى بان يحاول ايجاد الفن والشعر والأدب فى حياته . أجل ، هذه الحياة يجب الا نتركها تجرى فى نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة أو على الأقل نجعل بعض الأبيات العالية تتخلل هذا النثر . فنعيش ولو لحظات فى حياتنا نحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع من قلوبنا .

وهنا يضحك بعضنا ساخراً ويقول : هذا خيال . انما الحياة مجهود نجمع فيه ونكنز لليوم العصيب والأزمة الطارئة وليست الحياة قضاء الوقت فى تأليف الشعر .

وجوابى انى لا أنكر قيمة المجهود نبذله كى نكفل الطعام واللباس والسكنى . ولكن هل معنى هذا أن نقضى العمر كله فى الاهتمام بالطعام واللباس والسكنى ؟

ان الانسان لا يمكن أن يكون إنسانيا إذا اقتصرت اهتماماته وهمومه على الطعام واللباس والسكنى . وانما هو يرتفع إلى الانسانية عند ما تجد الثقافة الفنية ، ثقافة الترف الفكرى ، مسكناً فى ذهنه تأوى إليه بل تمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءاً لا ينفصل من حياته يوجهه ويكيفه ويعين له التصرف والسلوك ، أى يجعله ويضطره إلى أن يعيش المعيشة الفنية .

أعرف شابا لا يبالى أن يتغدى بأى طعام يكسر حدة الجوع. ولا يبالى أى لباس يتخذ ومسكنه غرفة فوق سطح أحد المنازل. وهو بهذه المعيشة غير متمدن أى أنه لا يستمتع بمتع الحضارة فى السكنى واللباس والطعام . وهى متع لا تنكر قيمتها . ولكن هذه القيمة صغيرة جداً إلى جنب المتع الثقافية الفنية التى يلمع بها الذهن وتسمو بها النفس . والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس هى أشبه المقارنات بنظافة الجسم إلى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب . فانه على الرغم من تقتيره فى هذه الأشياء أو بالاحرى اهمالها كان لا يترك كتاباً يستحق القراءة إلا كان يقتنيه . كما كان لا يتأخر عن شراء التذكرة الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت أجده زرى الهيئة نحيلا ولكن ذهنه حافل بالأثاث العصرى للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفنى . ولذلك كان فقيرا بوسطه غنياً بنفسه .

وقد يكون هذا المثال متطرفاً أو مسرفاً . ولكن الحياة الراقية تحتاج إلى أن نمارس فنا جميلا ينعكس أثره فى نفوسنا وعقولنا. فيجب الا نقرأ الشعر والأدب فقط بل نحاول ممارستهما. أجل . يجب أن نكون كلنا أدباء وشعراء نكتب الأدب ونقرض

الشعر . بل أكثر من هذا . ننقل الأدب والشعر الى حياتنا . ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة وننزع الى البطولة فى الدفاع عن حق أو الانتصار لمظلوم ونفكر فى اسمى المعانى ونعبر بأنصع الكلمات .

واولئك الذين ينشدون السعادة ولا يعرفون ما هى قد يجدونها فى ممارسة الآداب والفنون من حيث لا يدرون . وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح والدعوة لعالم اسمى ، أى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية من الحضارة الفنية .

السعادة

السعادة هى سلام النفس . وأول ما يجب أن نعرفه عنها أنها ليست مادية . ويجب أن نميز هنا بين السعادة والسرور لأنهما كثيرا ما يشتبهان . ذلك أن السرور ، أو اللذة ، مادية . أما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر أو بالإيمان أو الرؤيا أو الأمل بحيث يحفزنا واحد من هذه الأشياء الأربعة إلى كفاح. ولكنا نسر ونلتذ بالطعام أو اللباس أو المال أو الشهوات الجسمية .

والمسرات واللذات ، لأنها مادية ، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم توجم فى النهاية أو تؤدى إلى السأم . ولكن السعادة ، لأنها فكرية تنهض على إيمان أو كفاح أو اتجاه ، لا توجم ولا تؤدى إلى سأم . فالقديس مثلا سعيد بإيمانه وهو يستشهد فى فرح وطرب . وسعادته هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تنتهى عند الشبع ، وقد تحدث صدوداً .

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائمة باقية والسرور وقتيا زائلا . ذلك أننا حين نسعد بالفكرة لا يعيق سعادتنا حد أو غيرة أو مقارنة مهينة لنا بغيرنا أو إحساس النقص بأن

هناك من يحوزون أكثر مما حزنا . فقد أسرّ لأنى اشتريت عزبة أو اقتنيت أتومبيلا أو غير ذلك من المقتنيات المادية . ولكنى فى هذا السرور أحس أيضاً أنى كنت أكون أكثر سروراً لولم... فان العزبة كانت تكون أسرّ لى لو كانت أكبر وأخصب . وكان الأتومبيل يمتعنى أكثر لو كان من طراز آخر . وهلم جراً . ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب أن يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس . وهو أن جميع الناس يسعدون بمثل سعادته ، كما يحدث لأحدنا حين يطرب لاستماعه إلى لحن جميل ، أو لأنه يتأمل مبنى عظيما، فإنه يحث رفيقه على ان يستمع أو ينظر ويتأمل .

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلى ، أيسر مما نظن . فهى لا تحتاج إلى التكلف أو المشقة . بل ان السرور أدعى إلى التكلف او المشقة من السعادة . وذلك لأن السعادة ذاتية ، فى ذوات انفسنا ، إذ هى حال معينة او اتجاه معين . اما السرور فمادى نحتاج فيه إلى الاقتناء .

وقد يكون ايضاً من الحق ان نميز بين السرور والسعادة بأن نقول ان السرور اشتهائى غريزى يتعلق بما نأكل او نلبس او نسكن او نقتنى . ولكن السعادة وجدانية مرجعها الفكر

اى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج إلى التربية الفنية . بل إلى المعارف العلمية التى تكشف عن خبايا وكنوز لا تصل إلى إلى كنهها الغرائز . فأنا حين امارس الزهو الاجتماعى باقتناء الاثاث الفاخر او بالقيام بالضيافة المطهمة اونحو ذلك أمارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذيول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع. أىأنه سرور معلق ولا احتاج ان اتعلم كيف أمارسه ، ولكنى حين اقعد إلى جدول الماء واتأمل الطبيعة وهى ترغى وتزبد فى الحقول ايام الربيع واتابع فراشة فى نشاطها الغذائى اوالجنسى ، احس سعادة مطلقة . سعادة مخية وجدانية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج إلى تعلم .

وإذا كان القارىء قد تابعنا فى منطقنا فانه يستطيع أن يعرف لماذا نكون سعداء عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أوالرسم أوالبناء أو نستمع إلىمقطوعة فنية منالغناء أوالموسيقا. فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هىفوق الشهوات الغريزية . ونحن لانأجم هذهالسعادة ولانملها كما أنها لاتبعث فينا غيرة أوحسداً أو طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف ، كلاهما سعيدبفكرته. بلان العالمالذى يبحثموضوعاً علمياًسعيد أيضاً بعلمه لأنه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد أنها ستتحقق .

وليس شك أن السعادة هي سلام النفس . وهل شك أحد في أن سلام النفس هو فكرى وليس ماديا ؟

والعجب أن المتع الحقيقية في هذا العالم ، تلك المتع التي نسعد بها أسهل حصولا وأرخص قيمة من المتع الزائفة التي قصارى ما تؤدى أننا نسر بها سروراً وقتيا زائلا . وهي يجب أن تكون كذلك لأن السعادة فكرية ، والفكر لا يكلفنا مالا ولكن السرورمادي يكلفنا مالا وجهداً . وأحيانا تفوتنا فرصة السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لأننا استغرقنا حياتنا في السرور واللـذة .

ونستطيع أن نعود هنا إلى المقارنة بين القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . ذلك أن قيمة السعادة بشرية : في الفكر والاتجاه والتأنق الفني والتأمل الفلسفي والرؤيا للمستقبل والمثليات والكفاح لهذه الأشياء جميعها . وجميع هذه الصفات ذاتية في ذات انفسنا . وهي بشرية ليس لها قيمة اجتماعية . ولكن قيمة السرور اجتماعية في الأغلب لأنها تنشأ من اعتبارات المجتمع . لأني أسرّ مثلا باقتناء أتومبيل إذ ان مثل هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزاً وتفوقا . أو أسرّ بالثراء

لأن المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا .

وهل نستطيع أن نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل وجداننا فوق غرائزنا أى نجعل التعقل فوق الشهوات . وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو أسمى من همومنا الشخصية . نهتم بالناس والسياسة والهند والامبير يالية والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل الصحة والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضى الأحياء ، والتطور الماضى والقادم ، والمرض والصحة والدين والأدب والفلسفة . وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة. ولا تستعبدنا الغرائز فى اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لا تحصى بل لا تفتأ تبعث فينا الرغبة فى الزيادة . هذه الرغبة التى تجهدنا بل أحيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أواننا ونحن لاندرى أننا كنا مسوقين باعتبارات اجتماعية هى أبعد ماتكون من السعادة .

قلنا فى أول هذا الفصل ، أننا نسعد بالفكرة او الإيمان او الرؤيا أو الأمل إذا كان أحد هذه الأربعة يحفزنا إلى الكفاح. وهنا نحتاج إلى تفصيل موجز : ذلك أن الطاقة النفسية لا تطيق

الحبس. والكتم والكفاح ولذلك فإن لشأن ما، أى شأن نعتقد أنه حسن ، يفتح لنا قناة تنصرف اليها الطاقة . أما إذا حبست هذه الطاقة . فانها تحدث لنا فى الحالات الخفيفة نيوروزا اى ضيقاً عاطفياً . وفى الحالات الخطيرة تحدث سيكوزا أى جنوناً .

ولذلك كثيراً ما نجد الشاب مضطرباً متشائماً تسوده هموم مبهمة لا يعرف مأتاها فاذا انضوى إلى حزب سياسى مثلا انطلق فى تفاؤل يعمل ويسرّ بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطا ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من أنانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة .

وعلى هذا نقول إن السعادة تحتاج إلى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركوداً وجموداً بل هو أحرى بان يبعث نشاطا وهمة وانجازاً لأمل او تحقيقاً لرؤيا ، بحيث يكون هذا الأمل او هذه الرؤيا عند احدنا أسمى وأعم من همومه الشخصية الذاتية لأنها بسموها وعموميتها تكسبه كرامة وتجعل لحياته معنى بل معزى . وهنا السعادة .

تعقيب على السعادة

كانا تقريبا ننشد السعادة ونتحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التى لاتستحق مناقشة لأننا نعد السعادة خير مايطلب فى هذا الوجود .

ولكننا نختلف كثيرا فى معنى السعادة . وأن كان المألوف أننا نعنى بهذه الكلمة الأمن من الكوارث وراحة البال ، أى سلام النفس والصحة .

ولكن إذا كان هذا هو كل مانعنى بالسعادة فان كثيرين ، بل كثيرين جداً ، يحققونها . ومع ذلك لايجدون منا غير الاحتقار ، لاننا لا نحسدهم على حالهم هذه . إذ هى تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتيــة خالية من التفزز والتنبه ، ثم مايعقب هذا من تبلد ذهنى يشبه الجمود .

والرجل الذى تنزل به الكوارث المتعددة هو — فى القيم الانسانية كالذكا. والاختبار والتعلم — خير من السعيد الذاهل الذى لم تنبهه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : «أين موقفى من هذا العالم ؟ »

والسعداء الذاهلون كثيرون جداً ، وهم يستغرقون فى

المسرات، وينشدون الثراء، ويبلغونه ويحققونه ... وقد يعيشون في القصر الفخم، ويأكلون أطيب الطعام، ويتنقلون في الفصول من المصيف إلى المشتى، ويجدون حاشية من الخدم، كأن شهواتهم تجد الاشباع الدائم، وراحتهم رفاهية، ورفاهيتهم ترف وبذخ.

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح أن سعادتهم إنما هي ذهول وخمود وتبلد، وأنهم لو كانت الأقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة، توقظهم من سباتهم.

وهؤلاء السعداء الذاهلون يجدون في الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم. فان الديدان والحشرات مثلا أسعد، لأنها أكثر ذهولا منهم، وهي أيضا أبعد عن الكوارث .. اذ أقل ما يقال فيها إنها لا تعرف الكوارث حتى وقت وقوعها بها.

وعندي أن مثل هذه السعادة يجب الا ننشدها .. لأن السعادة العليا التي هي صفة الانسان العالي هي الوجدان. وكلما زاد الوجدان زادت السعادة، ولكن ... زادت الكوارث، والهموم والاهتمامات أيضا .. ونعني بكلمة الوجدان هنا مايسميه غيرنا « الوعي »

والناس في أغلب أحوالهم يعيشون بالتصوير الحسي لأنه

هو التصوير البدائى بل الحيوانى الذى لايحتاج إلى مجهود . ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصوير الوجدانى . فنحن مثلا نتأثر عند ما نرى طفلا قد وقع من الترام فقطعت ساقه . . ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندى ماتوا بالقحط، لانكاد نقف عند سطور هذا الخبر كى نتصور هول هذه الكارثة ..! فالحادث الأول سريع إلى حواسنا لأننا قريبون منه ، وتأثرنا لذلك سريع ، ولكن الحادث الثانى يحتاج إلى مجهود عقلى حتى نتأثر به .

وعلى هذا القياس نقول إن السعادة نوعان : الأول هو سعادة الحواس ، أى المسرات الحسية المادية ، أما الثانى فهو سعادة الوجدان ، أى سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية. وهذه السعادة الفكرية لا تبالى الكوارث ، بل أن الكوارث تخصبها ، وتزيدها نضجاً وإيناعا ، بحيث أننا عندما تمر بنا السنين ننظر إلى التقلبات والنكبات التى نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا حيوات عديدة بدلا من حياة واحدة . . وكثيراً ما أعود بالذكرى إلى بعض الصدمات والكوارث والأحزان التى مرت بى فأجد كلا منها كان بمثابة الدرجة التى ارتقيت عليها صاعداً فى سلم الحياة لأنها زادت وجدانى فزادت تعمق فى الحياة وتوسعى

فى الاختبارات وأكسبتنى هموماً قد استحالت إلى اهتمامات لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول إن الحيـاة السعيدة هى الحياة الحيوية التى تزيد فيهادرجةالحياة حدة ويقظةوتنبهاأى وجدانا. والهموم والازمات والـكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية .. وهى تزيدنا سعادة . أما الأمن من الـكوارث والمعيشة الحسية والمسرات فتجعلنا نعيش فيمايقارب الذهول،فلا نتنبهولانحتد أى لانتعقل فى حدة ودقة وإمعان . ولو كانت هذهالسعادة هى ما يجب أن نطلب لـكان أدنأ الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومآزقها وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الأشياء بالوجدان والتعقل. وذلك الذى يبغى السعـادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد حياته حيوية لا أن ينقص هذه الحياة بالاقتصار على المعيشة الحسـية ، على المسرات ، هذه هى السعادة التى تستحق أن ننشدها . السعادة هى الفهم بالوجدان والتعقل .







